شغفها قدرها
قصة قصيرة
رزان جلب

قد شغفها

قصة قصيرة

رزان جلب

تدقيق

ريشة طالب طب

تنسيق

آلاء الأغدي

إهداء:

إلى السّاعينَ نحو أحلامِهم المُرابِطين على أبواب أُمنيّاتهم.
إلى كلِّ من خَالجَ قلبَه شعورٌ لم تُسعِفه اللّغةُ لوصفه.
إلى الإحساسِ الأبتَر والشعورِ الذي يجعلنا بلا بصيرة.
أُهدي هذه القصّة كمحاولةٍ لإشعالِ شمعةً في وسطِ الظُّلمة.

-الفصل الأول-

"ترتجفُ يدها فتحكم قبضتَها على من تعاهدت ألا تتركها، فيبكيان معاً ويخفضان رأسيهما خوفاً من الأصوات التي تجتاح زجاج نافذة الباص الذي قد راهن الجميعُ على أنَّه لن يصلَ سالماً

لكنه وصل! "

من إحدى القرى في إحدى الليالي الّتي زاد ظلامها حلكة الوداع، وسابقت عبرات الخوف أمطارها، من هناك خطّت شغف نقطة تحوّلها الأولى، تلك الفتاةُ الّتي شغفت من حولها بسحرٍ لا يُعرَف! استمدّته من خصال أمها الطّيّبة وأبيها الحنون، ثمّ استخلصت من عبق الطبيعة ما يزيدُها تألّقاً وجمالاً كالورود، لتتزوّد أخيراً بالتّقى من حِلَقِ المساجد وقلوبٍ قد عُقِدت على المحبة والعون.

لم تسمح لها ظروف الحرب أن تسافر مع عائلتها لتتقدّم لامتحان الشّهادة الثّانوية فحصارٌ خانقٌ قد عمّ قريتها ولا يخرج منها إلّا القلائل بطريقٍ لا يمتّ للطّريقِ بصِلَة، فهو تجربةُ قطار الموت بل أكثرُ رعباً.

يبدو أنّ الحياةَ أرادت تعليمها أنّها ليست كحنوّ والديها، ولكنّها كانت تملك رصيدَ أحلامٍ يستحقّ المخاطرة ودفع الثّمن! فركنت العجزَ وتمسّكت بحبال الأمل، وكان المفتاحُ لها من هذا التعقيد صديقتَها هدى؛ مَن رافقتها منذ نعومة الأظافركشريانٍ يضخّها بالعتاد والمُؤَن، كان بصيصَ النّور منزلٌ يملكه والداها في المدينة يعيش به بعض الأقارب ممّا يسمح للفتاتين أن يمكثا حتى انتهاء الامتحان.

أُجهِدت كثيراً لتقنع والدها بالسّفرِ للامتحان ومن ثَمّ إكمالِ دراستها الجامعيّة فقد كان يخاف عليها من النّسيم، لكنّ رأفةً بأحلامِ من أسماها شغف، وتوكّلاً على خيرِ حافظٍ جعلاه يوافق على رحيل ابنته لتحقّقَ مبتغاها وحلمه.

دنا منها وهي تطبق متاعَ السّفر وقد حبس قلقَه خلف حروفِه قائلاً:

- لن أوصيكِ يا ابنتي سوى أن تحافظي على ما أنتِ عليه وأن تتقي الله حيثما كنتِ وتذكّري أنّ سعيك لن يضيع والّذي فطرني.

تنهّدت شغف ونظرت مطوّلاً في عينيه اللتين ورثَت منهما خضرتهما وحدّة رؤيته وقالت:

- على مهلك يا أبي، وكأنّك تودّع من سيهاجر أو لن يعود!
أوَلا تعرُف ابنتَك غصناً غضّاً لايقدر على فراق الجذع مهما اشتدّ ساعده؟!
سأعود وسنلتقي تكراراً إلى أن أستقرّ هنا، حاملةً معي شهادة الطّب وقد علّقت لي لوحةً تحملُ اسمي مسبقاً بالطّبيبة ومستنداً عليك.
- يوم المنى يا صغيرتي وفقك الله لكل خير ومهَّد لكِ الدّرب وأبعد عنك كل مكروه.

همسَت أمُّها في أذنها قبل أن تغادر:

- بنيّتي الّتي لا يسعُ عقلي أنّها كبرت فلتتذكّري جملتي: "ملتفتٌ لا يصل"

لا تجعلي مغريات الطّريق أو عقباته تنسيك الهدف يا حلوتي، وكوني على يقينٍ تامٍّ بوصيّة رسولنا عليه أفضل الصّلاة والتّسليم: "احفظي الله يحفظك"

ثم علق الكلام في حنجرتها وفاضت عيناها وقالت بلهجةٍ يشوبها الحزن والأمل:

- أستودعُكِ الله الّذي لاتضيع ودائعه.

لتدخلا سويّةً في نوبة بكاءٍ لم تخرجا منها إلّا بصوتٍ ينادي بحماس:

- هيّا يا شغف نحن على وشك الانطلاق!

فقبّلت يدَي والدتِها وأمعنت في تقاسيم وجهها الّذي لطالما كان الضّياءَ لأيّامها، وحملت أخاها الصّغير تودّعه وتغمره محاولةً حفظَ رائحته في جوفها ثمّ خرجت تهرول نحو هدى لتركبا معاً نحو حلب.

-الفصل الثاني-

"لم تصفُ الدنيا يوماً لأحد ولم يثبت أيّ منا على حالٍ دون معيّة الصّمد"

فها هي شغف المدللة من كان طلبها يصير أمراً كأنها في الجنة، والتي كان لا يطيب يومها دون محادثة مسائية مطولة مع والدتها وجولات صباحية مع أخواتها تستقي منهم القوة والأمل، ها هي الآن باتت وحيدة لا كتف يدعمها ولا سند يحميها.

أنهت امتحاناتها الثانوية وتلقَّت نتيجتها التي يحلم بها كل طالب، فقد كانت تخولها لدراسة أي فرع تشاء، ولكن كيف يصدو الفرح في أرجائها إن لم يكن حولها من تشاركه إياه، فلا أقسى على الأيام من الغربة!

والعلقم سيبقى في الحناجر مهما استساغ المرء من حلاوة.

وعلى ما يبدو فإنها ستعاني منها كثيراً، فالحصار ما عاد يسمح لأحدٍ بالخروج أو الدخول للقرية وبات محتّماً عليها العيشُ بمفردها دون مأوى أو حضن تهرب إليه من خشونة الدنيا.

لم تتردد للالتحاق بالسنة التحضيرية للكليات الطبية برغم الهاجس الذي أضحى يزورها مراراً بأن عليها إعادة التفكير بالأمر، لكنها كانت تردعه بتذكر وعدها لأبيها، حين كان على بعد شعرة من فقدان ساقه بسبب المدة لوصول الإسعاف للمدينة لعدم وجود طبيبٍ مختصٍّ بجراحة الأوعية في القرية، وبعدما تماثل للشفاء؛ نظر عادل إلى ابنته شغف وعيناه تلمعان ثقةً وأملاً ودعا لها برجاء:

- اللهم اجعلها من وسائل رحمتك في هذه الأرض، اللهم آمين.

كانت تلك الجملة منبهاً لها في كل يوم دراسي ليجعلها تثابر أكثر، ومزوداً لها للهمم، ومداوياً لحظها من البعد والألم.

أما صديقتها هدى فقد بذلت قصارى جهدها لأن تكون الداعم الأول لها، من يربت على قلبها ويداعب روحها، لكن الظروف حكمت بالفراق عليهنّ، لتدخل هدى كلية الهندسة وتبتعد عن شغف التي التحقت بالسكن الجامعي، لكيلا تثقل كاهل صديقتها بالمكوث معها لدى أقاربها.

كانت رهف زميلتها في الغرفة وهي في ذات الدفعة مما شدّ على رباط علاقتهم، لم تكن تشبهها كثيراً في الأفكار لكن كما قالوا يولد التآلف من كثرة الولفة.

ولم تلبث رهف أن تُعرِّفها على بقية صديقاتها ليكوّنَّ شلةً شغف فيهن كالشّامة.

كنَّ في أحد الأيام في محاضرة لعلم التشريح ولم يكن الحضور جمعاً غفيراً، وحين خرجن غمزت إحداهن شغف قائلة:

- ماشعورك اليوم وأجمل شابٍّ في الدفعة قد تقصد الجلوس بجانبك؟

فتعالت الضحكات منهنّ واحمرّت وجنتا شغف من شدة خجلها وقالت لها طالبةً منهنّ أن يخفضوا أصوات الضحك:

- كفاكن سخافة فلم أنتبه له أبداً! ولا أعرف أصلاً من يكون ولمَ قد يتقصد هذا مثلاً؟ كل مافي الأمر أن المكان بجانبي متاح وليجلس من يريد هنا فلا يهمني.

قاطعتها أُخرى بابتسامة مصطنعة:

- إنّه مطر.

اسمه غريب حقاً وأظن أن كل من في الدفعة يعرفه، ألا تذكرين في الفصل الماضي حين ألقى شعراً في الأمسية فذابت قلوب البنات من رقة كلامه قبل وسامته وحسنه!

تذكرَت حينها شغف ذاك الشخص الذي يتحدثن عنه، فقد لفت سمعها اسمه، هي التي تعشق المطر وتقع أسيرة تحت تفاصيله،

يجعلها تغرق في بحر الأفكار والعواطف لتطفو أخيراً الكلمات حبراً على الورق، فما كان منها حيت قرأت عن أمسية ستقام وأحد المشاركين اسمه مطر إلا أن تصر على الحضور لسماع ما سيقول، وكان فعلاً كلامه كاسمه يسقي القلوب العطشى ويأسر تحته المحبين.

أنهت الحديث بإيماءة برأسها أنها قد عرفته وملامح وجهها تجعلهنّ يوقنَّ بأنها لاتكترث، غيرت مجرى الحديث وهي تهب قائمة وتسألهنّ باهتمام:

- معدتي تقيم مظاهرة تناشد بوجبة ثقيلة فمن لها؟

أجابتها رهف وهي تضع يدها على بطنها:

- سبقتني بالقول ياشغف فمحاضرات اليوم لاترحم والأستاذ انشرح بالحديث وهو يحفظ أسماء العضلات كأنها أولاده وأنا لا أتخيلها إلا سيخاً من الشاورما والأحشاء بجانبها صحن بطاطا مقلية.

صدَت الأرجاء بضحكهن وهن يتوجهن للمقصف ليعوضوا ماحرقوه من طاقة في فهم تلك المادة الجافة.

وفي محاضرة اليوم الذي يليه كانت شغف قد تأخرت في القدوم وحين دخلت تابعتها عينا مطر بكل اهتمام ولم يزلهما عنها حتى التقت عيناها به فأطرق خجلاً وعاد للمحاضرة.

حدثت نفسها أنه فضول منه بأن يرى الطالبة التي تتأخر دوماً بالحضور ولكن صديقاتها لم يكفّنّ عن تسميعها ذات الكلام كل اليوم يا ساحرة عينَي مطر!

وفي الأسبوع الذي يليه كانت تجلس في المقعد الأخير وكان الأستاذ من عادته أن يسأل الطلاب، فأجابت حينها بجواب ذكي لسؤال صعب فذهب إليها وقرب مكبر الصوت وسألها عن اسمها فأجابت بصوتٍ ناعم رقيق ووجهها قد أصبح غارقاً في الحمرة فأنظار الجميع كانت ترمقها:

- اسمي شغف كسّار.

فأثنى عليها وقال لها:

- ستكونين ذات يوم زميلة منافسة لنا ياشغف!

فعمّ الضجيج أنحاء المدرج في حين هدأ ضجيجٌ واحدٌ فقط كان ذاك في قلب مطر الذي كان يبحث عن اسم ذاك الملاك الذي سحره.

-الفصل الثالث-

لم تغرب شمس ذاك اليوم حتى وصل إشعارٌ في هاتف شغف محتواه:

(قام مطر شعبان بإرسال طلب صداقة لك)

لَم تعلم لِمَ لَم تقم بالرّفض كعادتها لطلبات الشباب الذين يصلون لصفحتها لكنها أدركت أنها بحاجة لأن تتكلم مع أحد.

اتصلت بهدى على الفور، كانت لم تكلمها منذ شهور فاسترسلت الفتاتان في الكلام وسألتها هدى عن أحوال قلبها كعادتها فأجابت:

- قلبي مشتاق لك ولكل شيء قديم!

أتعلمين؟

لست أدري مابي لكن هناك شعور غريب يخالجني، وهمٌّ كبيرٌ يؤرقني، فلتدعي لي ياصديقتي فأنا أحتاجك..

ثم شابَ صوتَها بعضُ البكاء لتكمل:

- أودُّ لو أعود لأرتمي في حضن أمي وأبكي، لكنّي قد كبرتُ وكبرَتِ الأثقال على عاتقي..

فبادرتها هدى بأرق العبارات والاحتواء وجعلت تشحنها بطاقة إيمانية تجعلها تقوى وأغدقت عليها بالمحبة والذكريات حتى عدل صوت شغف للارتياح وأردفت قبل أن تغلق:

- لِمَ لا تأتين معي السبت القادم لحضور درس في المسجد؟ ألم تشتاقي لتلك النفحات؟

- بلى اشتقتُ كثيراً، سأحاول إن شاء الله، دعواتك.

وأغلقت الهاتف دون أن ترنو للهدف الذي كانت تريده، فقد كانت تريد البوح بكل ما تسمعه من كلام وأفكار، أن تخبرها عن طلب الصّداقة وعن مزاح صديقاتها الذي كانت تستنكره ثم بدأت تستسيغه شيئاً فشيئاً، لكنّها أقلعت عن تحديثها بهذا وقالت في نفسها أنه ليس أمراً يستحق الذكر وفضلت أن تبتلعه وتناثر بعض الحروف على الورق.

دخلت رهف عليها واسترقت النظر لما تكتب ثم صاحت بها مستنكرة:

- مجنونةٌ أنتِ! سترفضين طلب صداقة مطر؟!

- ومن سمح لكِ بالاطّلاع على ما أكتب؟ على كل حال فأنا لا أقبل الشباب على صفحتي، سواءٌ كان مطر أم شمس لا يهم!

عدلت رهف جلستها وأخذت تشارك لغة الجسد بما فيها من نظرات وحركات وقالت:

- هذا كان سابقاً ياحبيبتي حين كنتِ طفلة في المدرسة تحت سجن والديك لا تعرفين سوى بنات الحي، أما الآن فأنت في الجامعة ولكِ حريّةُ التصرف والاختيار! وليس من الذوق رفض زميلك في الدراسة ليكون صديقاً في صفحتك، ثمَّ إنَّكِ لا تنشرين بها صوركِ ولا تشاركين فيها يومياتك فما المانع من القبول؟ كفاكِ تعقيداً حباً بالله، هو مجرد طلب صداقة لا طلب يدك للزواج!

كان جوابها هجومياً جداً عليها حتى أنها تزعزعت ولم تجد لديها أيّ جوابٍ تدافع به عن مبدئها فآثرت الصمت ومتابعة الكتابة وترك الطلب معلقاً إلى أن تقرّر.

لم تخفِ رهف ذاك الجدال الشّيّق عن بقيّة البنات، ليجعلوا من شغف حديثهم وشغلهم الشاغل، واستقبلتها ألسنتهم بكل أنواع المزاح والتعليق على ذاك الأمر.

قالت إحداهنّ وهي تنظر لشغف بازدراءٍ ورائحة العطر تفوح منها:

- أتحسبين أنّكِ بردائك الطّويل الفضفاض هذا أكثرُ منا ديناً وعلماً؟ وأننا في بقعة من الانحلال الأخلاقي؟ ليس هكذا أيتها الشّيخة!
فالدين في القلب ولا ندري أيُّنا أقرب لله أما مظهري فأنا حرَّةٌ ألبس ما أريد وهذا لا يتنافى مع كوني مسلمةً أحبُّ الله وأصلّي فروضي وأخشاه، فلا تعقّدينا حبّاً بالله وتقولي أنّه لايجوز الاختلاط والصّداقة مع الشباب!
لا أدري لمَ نظركم قاصرٌ أيها المتدينون؟ لا تحصرون العلاقة إلا بالزواج وكأننا نحن الإناث مجرَّدُ أجسادٍ ولسنا أفراداً في المجتمع! نحن في القرن الثاني والعشرين، استفيقي! كفاكِ تصرفاً كأنك في عصر الصحابة!

تتالت النظرات والتأييد لكلامها وكلما همت شغف بشرح المغزى والمبدأ سخروا من تفكيرها حتى بدأت تشكّ هل هي حقاً على صواب أم هم المحقّات؟

فما كان منها حين عادت للمنزل سوى أن تقبل ذاك الطّلب وهي تبرّر لنفسها بكلام إحداهنّ: "ليس هناك مانعٌ على الأقلِّ من صداقةٍ وهميّة".

-الفصل الرابع-

"إن راهنَتِ الأنثى على ما راهنت من مستحيلاتٍ وعجب... ستكسب!

ولكن حين تراهن على عواطفها فهي في الغالب لن تسلم"

إنّه يوم الأحد؛ بدايةٌ جديدةٌ لمعركةٍ جديدةٍ تدوم لخمس صباحات متتالية في كلٍّ منها مجاهدة ومطبّات ومنح من الله تعالى، ثمّ تهدينا الحياةُ استراحة مقاتل يومين نرمّم بها ما انكسر ونعدّ العتاد والمؤن لنعاود الكرّة...

كان هذا هو معنى الأسبوع في قاموس شغف، لكنّ هذا الأحد كان لها كسطر لوّنه القدر بعلامة فارقة كمعلومة مميّزة في إحدى محاضراتها المهمّة.

كان هذا أوّل يوم تدخلُ به الجامعة كطالبةٍ في كليّة الطّب البشريّ، فالسنة التحضيريّة سحبت شراعها من شاطئها وقد اقتاتَتْ من طاقتها ماجعل كلّ من يراها يسألُها: مابالك تقاربين على الاختفاء؟! تقوّي وتغذّي أكثر!

فالنّاس لا ترى إلاّ المظاهر ومانسطّره من إنجازات تتوّج، لا أحد يعلم كم نستنزف من أرواحنا ونفوسنا في سبيل البقاء على قيد الأمل والإنجاز..

كم خيبةٍ نصاب بها قبل أن نعلن عن لحظة الانتصار..

كم دمارٍ ننقل أنقاضه بصمت قبل أن يشهق النّاس من إبداع البناء...

لكن لاحُرمنا تلك الأيدي التي تُمدّ للإعانة على النّهوض لا تدفعنا للسقوط، وتلك الكلمات التي ربّما تكون في الواقع مجرّد حروف؛ لكنّها كالخندق تحفر في القلوب فتنثر الورد على الجروح.

تحدّت شغف كلّ ما كابدها من تغيّراتٍ جوهريّة في حياتها بدءاً من حمل المسؤوليّة لدراسة الطّلاسم الطّبّيّة لتربح التّحدي بفضل الله، ثمّ أهلها ومن حولها من صديقاتٍ لتحوز في فصلها الثّاني على معدّل يعدّلُ درجاتها الدّانية في الفصل الأول فيؤهّلها لإكمال دراستها في ما ترغب.

وأمّا عن صداقتها الوهميّة مع مطر فلم تتجاوز كونه المتفاعل الأول على كل قصة تضعها وكأنّ التعبير بجانب اسمه أصبح ضوءاً خفيّاً يتسلّل إلى سويداء قلبها.

بدأت مشرفة مخبر علم النسج تنادي لأسماء طلاب الفئة بينما تهمّ شغف لتلتقط صورة لها بمريولها الأبيض الذي سيرافقها عُمْراً بعد عُمْر، ولأجله ستبذل وتسهر، وحين سمعت اسمه..

صدى بقلبها لا بالجدران..

وارتحلت عيون زميلاتها لها بنظرة تخلط بين الاستغراب والحماس فقد قرأن جميعاً قائمة الطلاب في الفئة واحداً تلو الآخر ولم يكن اسم مطر بين المكتوبين، لكن على مايبدو أنهنّ نسين أن يتفحصن طلبات النقل بين الفئات..

وقد لحق بنداء اسمهِ اسمُ شغف وكأنه قدرٌ يجمعهم، أو أنه من خطّط للصّدف.

همّت شغف بالابتعاد عن مكان جلوسه الشاغر واقتربت من الصف الأول لتجني أكبر قدر ممكن من المعلومات والخبرة لتفريق المجاهر.

أنهت المُحاضِرة الشرح عن محضرات الجلسة ثم وزّعت المجاهر على الطلاب بحسب تسلسل الأرقام واندفعت شغف لكرسيها لتبدأ الإبحار في عالم يجتاز الرّؤية المجردة، ولحقها مطر وبحوزته علبة خشبية قد حملها قبله آلاف الأطباء الذين بعثرهم القدر.

نظر لشغف لأول مرة عن قرب فأشرق وجهه وقال:

- لكلّ مجهرين هنا علبة واحدة لذا سنتشارك في رؤية هذه المحضرات معاً.

أجابته بصوت خجول:

- لا بأس إذاً أعطني إحدى الشرائح لو سمحت.

- بالتأكيد تفضّلي.

ثمّ أضاف وهو يناولها إيّاها:

- يمكنكِ مناداتي بمطر، وإن لم يخب ظنّي فحضرتك شغف؟

أخذتها منه سريعاً والعرق قد غطى جبينها ثم أجابت وهي تشعل المجهر بصوت لايكاد يُسمَع:

- نعم هذا هو اسمي، شكراً لك.

انتهى الوقت المخصّص للجلسة وكلاهما منغمسٌ في مجهره ولم ينطقا ببنت شفة، ثمّ أخذَت شغف أغراضها وانطلقت مسرعةً للخروج؛ فعشرات المكالمات الفائتة من رهف قد وجدتها مسجّلة وهي في الخارج تنتظرها على أحرّ من الجمر.

قابلتها ببرود وتظاهرت بالتعب والانشغال لتهرب من ألسنة بقية البنات، فركبت الباص متوجّهة لركنها الآمن، غرفتها وسريرها الدافئ حيث لا أحد يتطفّل عليها أو يلسعها بنظراتٍ وكلامٍ جارح.

تتالت الأسابيع ولم يكن مطر يكتفي بفتات الحديث معها، فقد كان يحاول فتح كتابٍ قد أُغلِق بإحكام، فتراه تارةً يختلق الأسئلة حول المحضّرات وتارةً يستأذن منها لرؤية مجهرها متحجّجاً بعدم وضوح مجهره، وهي كانت تجيب على قدر السؤال.

وهذا الأحد طلب منها أن تعلّمه كيف تظهر الساحة معها بهذه السرعة متمسّكاً بذريعة قرب موعد الامتحان.

صمتَت برهةً بعد طلبه ثم تلفّتت حولها علّها تجد عذراً للهروب أو أن تقول له اسأل أحد الشباب، فلم ترَ إلا فتاتين أمامها وثلاثةً في الخلف فكانت كمن حوصر في زاوية من قبل صائد مكّار، فأذعنت لطلبه واقتربت من مجهره وأخذت تشرح له بسرعةٍ آليّة العمل، وهو كان سارحاً في الآلية التي يخطف كلامها بضعاً من قلبه ويأسره لديها، وكيف تجعله برؤيتها أسعد مَن في الكون في لحظات.

-الفصل الخامس-

فصلٌ تلو فصلٍ ومادّةٌ تلو أخرى، كان التآلف بين أرواح شغف ومطر يتأصّل.

بدأ الأمر في مخبر النّسج بتبادل المحضرات والسّلام.

وهاهو الآن في مخبر التّشريح المرضي قد تجاوز حدّ السّلام..

في يومٍ ماطر من أيام تشرين السّخيّة، قدمت شغف كعادتها متأخرة والماء قد اكتساها، نصحتها رهف بالعودة هذه المرة دون أن ترى المحضرات لكيلا تمرض من البرد، فعلى ما يبدو أن صوتها قد شابَتهُ بعض البحّة لكنّها كانت تعشق المجاهر فكابرت وقالت أنّها بخيرٍ وستلحقها حين تنتهي.

- هل أنتِ بخير؟

سألها مطر باهتمام حين عطسَت عطستها الخامسة على التّوالي.

- أجل أنا بخير لكن هل أجد لديك منديلاً؟
- لحظة واحدة فقط، تفضّلي.

ثم بعد دقائق طلب منها أن تعطيه الشّريحة فناولته إيّاها بأيدٍ مرتجفة، فنظر إليها قائلاً:

- على مايبدو أنّي لا أناسب مناعتك.

- عفواً، لم أفهم؟

عدّل من جلسته وأشار للنافذة:

- أقصد المطر الذي جعلك تصابين بالزكام.

- ليس كما تظنّ، فأنا على هذا الحال منذ عدة أيام ولاذنب للمطر في هذا.

فلمعت عيناه واختفت بسمته وقال:

- ألم تتحّسني أو تأخذي أيّ دواء؟

- مجرّد نزلة برد وستنتهي بدواء أو بغيره، أيستحقّ أن آخذ صادّاً حيوياً أيّها الطبيب مطر؟

سرح فيها مطولاً فهذه أول مرة تنطق شفتاها باسمه، كان لايكترث باسمه ولكن بعد اليوم صار يعشقه، أجابها بعد أن انتبه أنه قد أطال السكوت:

- لا لا فأخشى عليك من المقاومة، فليس كمثلها صعوبة على الطبيب.

عادت شغف لمجهرها وتظاهرت بالرّؤية بعد أن وصلتها منه تلك الرسالة الخفية فاشتعل عقلها بالتفسير والأحكام.

- لكن أظن أن شرب السوائل الدّافئة سيحسّنُ على أيّ حال من وضع مريض الزكام.

قالها مطر حين كانت شغف على وشك الخروج، ثمّ أضاف قبل أن تجيب:

- لاتستخفّي بقدراتي فأنا أمهر من صنع الإندومي، تعالي وارحمي أصابعك التي تكاد تصاب بعضّة الصّقيع من البرد، لن يأخذ هذا وقتاً طويلاً وقد خرجتِ اليوم قبل خمس دقائق من المعتاد.

- لا عليك سأدفئهم حين أصل.

- من يسمع قولك يعتقد أن المدفأة في غرفة السكن تشتعل جمراً تنتظر قدومك، هيّا من فضلك لا أظن أنك تريدين أن تزدادي سوءاً وفحصنا الأسبوع المقبل.

أومأت برأسها وسبقها بالخطوات وقد أطرقت نظرها في الأرض وقلبها يشتعل ويتساءل:

- لمَ كل هذا الاهتمام لشأني؟

أخبرها عقلها أن تصرّ على الرفض وساقتها عاطفتها للجلوس على الدّرج مع مطر ليأكلا معاً.

- هل الغربة قاسية كما يقولون؟

قطع سؤاله الصّمت الذي كان ثالثهما

فأجابته دون أن ترفع رأسها:

- أقسى مما تعتقد.

- لا يذوقُ الألمَ إلّا صاحبُ الجرح، ولكن أحاول تخيُّلَ كمّ الصّعوبات والمسؤوليّات الّتي تعترِيكِ، حقّاً معجَبٌ بإصرارك وكفاحك!

عدّلت جلستها وأجابَهُ خجلها وابتسامةٌ رسمتها على وجهها.

فأردف مسرعاً:

- أعتذر على تدخلي ولكن كان من باب عرض الخدمة إن احتجتِ يوماً ما مَن يساعدك.

- الله لاينسى أحداً، وشكراً لعرضك الشهم.

قالت جملتها وهي تهرول بالنّزول، ثمّ أضافت:

- شكراً أيضاً على الحساء السّاخن.

- لا شكرَ على واجب.. ألقاكِ غداً، انتبهي لنفسك لو سمحتِ.

وعلقت جملته الأخيرة في الفراغ، فلم يكن لها صدى أو إجابة، فكان صداها يترعرع شيئاً فشيئاً في قلب شغف.

وفي تمام العاشرة مساءً كانت شغف في المطبخ، رنّ هاتفها بإشعارِ وصول رسالةٍ على المسنجر، دفع رهفَ الفضولُ إلى الاطّلاع على مرسلها، لتجد رسالةً من مطر مضمونها:

(أسعد الله مساءك وأبعد عنك كل همٍّ وغمٍّ ومرض.
أخبريني كيف حالك الآن؟ أردت الاطمئنان عن صحتك.)

دخلت شغف فوجدَتها تنظرُ إلى هاتفها وملامحُها توحي بالدّهشة، فأخذت الهاتف منها عنوةً لتبدأ رهف بإشراع أسلحتها ضدّها قائلةً وهي تضحك:

- علمناكِ الشحادة سبقتينا على الأبواب...

لم تفهم قصدها حتى قرأت الرّسالة، ففغرت فاها وعلمت أنّه حقاً قد تمادى الأمر إلى ما لم يؤخذ بالحسبان.

-الفصل السادس-

"كيف حالك يا شغفي؟

أتمنّى أن تكوني بخير، إحساسي السّادس يجعلني أقلق عليكِ؛ هل كلُّ شيءٍ على مايرام؟"

كانت رسالةُ والدتها تلك أشبه بمدفع انطلق وأعلن عن وقت الانهيار.

ماذا عساها تخبرها؟!

عن الغربة الّتي اقتاتت من عمرها؟

أم آثار الحرب التي تكاد تحدّد عليها حصتها من الهواء؟

كيف حالها حقاً؟

غداً عيد ميلادها الواحد والعشرون،

هل أُعطيَ ربيعُ عمرها حقه،

أم أنّه تصادف مع خريف الوطن فما عاد للزّهر مكانٌ فيه؟

إنّها بخيرٍ لا شكّ، تصلي فروضها، لكن لذّةٌ ما قد فُقدت، تجتاز الفحوص بمعدّلٍ مقبولٍ لكنّها تحملُ بعضَ المواد من فصلٍ إلى فصلٍ بعد أن كانت لها الرّتبة الثالثة في دفعتها لعامها الثاني،

تتواصل مع أهلها بانتظام لكن لم تعد تفتح لهم باب قلبها السّرّيّ...

صديقتُها هدى تحاول مراراً أن تجتمع معها، لكن شعورٌ غريبٌ يجعلُ شغف تعتذرُ كلَّ مرّةٍ منها..

أجل هناك شيءٌ ما ينقصها، لاتراه يكتمل سوى بمحادثةٍ معه!

كأنّها قد تعلّقت به تعلّق الأرض الجرداء بالمطر..

تعلّق الغريق بقشة..

والضّرير بالرّؤية..

ماعادت تلك الفتاة التي تجد سَكِينتها بين الكتب أو في لقاء مع صديقتها أو باتّصال مع أهلها برغم أطنان السعادة التي كانت تجنيها مسبقاً منهم، إلّا أن مطر جمعهم معاً..

كان عطف الأب الّذي فقدته، وحنان الأم الّذي تفتقدهُ..

كان الصّديقَ والزّميلَ الّذي لا يمرّ يومٌ دون لقاء به أو محادثة.

فكيف لاتعتاده وهو يشغل حيزاً في قلبها؟!

أجابت أمَّها ببعضِ الكلماتِ المُطمئنة، فهي تعلمُ أنّ ضغطها الدّمويّ لا يحتملُ توتراً أكثر، وأردفت ممازحةً لها قائلةً:

"أخبريني يا أمّي، هل قدومي حقاً مَن يجعل السّنة كبيسة؟
دعواتك بالتّوفيق لي في امتحان غد"
أجل فقد وُلِدَت في يوم ٢٩/شباط؛

التّاريخ الّذي يزورها مرّةً كلّ أربعةِ سنين، ليجعل منه ذكرى مميّزةً، وزاد هذه السّنة تميّزه بما حصل.

استيقظَت متأخرةً فقد سهرت بما فيه الكفاية لتراجع مئتي صفحةٍ وأكثر.

"وأخيراً الامتحان الأخير"

زفرت بقوّةٍ وكأنّها تخرجُ مع كل ذرّةٍ المعاناةَ، ثمّ ابتسمت لرهف الّتي بادلتها ابتسامةً أعرض، فذاك يوم مقدّس لدى كل طالبٍ في الجامعة.

فتحت الباب فعبقت رائحةٌ عطرةٌ،

ثمّ تحسّست شيئاً ما وهي تخطو خارج الغرفة، لترى باقةً من النّرجس قد أطلّت أمامها، منذ زمنٍ بعيدٍ لم ترَ النّرجس. التقطتها بكلّ فرحٍ ولم يخطر ببالها أنّها هديّةٌ لها، صرخت لرهف:

- يبدو أنّ أحدهم قد تعثر ووقعت باقته هنا، يا للمسكين الحزين!

تناولتها منها قائلةً:

- أنتِ المسكينةُ ياعزيزتي الّتي لا تصلها الهدايا، الورد؛ اممم لا بأس به، طريقةٌ كلاسيكيّةٌ لكنّها -كخطوةٍ أولى- مقبولة.

ثم تمتمت بصوتٍ خافتٍ متعجرفٍ:

- لطالما أحسَستُ أنّ أحداً ما يهتم بي وسيصارحني.

ليتلاشى سرابُ الأفكار حين قرأت بصوتٍ عالٍ ما كُتِبَ على البطاقة الّتي دُسَّت بها:

"إلى شغف العمر الّذي كنتُ أبحث عنه،
كلّ عامٍ وأنتِ بخير 💔 "

بلعَت ريقها بصعوبةِ مَن كاد يختنق، ولملمت مابقي من كبريائها متظاهرةً باللا مبالاة لتعطيها الباقةَ وهي ترفعُ حاجبها الأيمن كعادتها حين تغتاظُ غيرةً:

- من الجيّد أنّها لكِ، فأنا لا أحبّ النرجس.
- لي!

منذ وقتٍ طويلٍ لم تصلها هديّة، ربّما كان طقمُ الكؤوس الّذي أُهدِيَ لها مِن عمّتها في نجاحها بالصف التّاسع آخر مفاجأةٍ لها.

لم تعلم المرسل، فلم يترك أثراً أو توقيعاً، لكنّها كانت تعلم تماماً من يشاركها في عشق النرجس.

أدخلتها في كأس ملأت به بعض الماء والكثير من المشاعر التي هربت من عينيها، لتسرعا هي ورهف للوصول للجامعة.

سلمت الأوراق بلا اكتراث للأسئلة التعجيزية التي تريد من الطالب أن يعرف ما نسبة نجاح العملية، والاختبار الذي يجرى في القرن الخامس هل له سلبية؟

ثم همّت لإخراج أغراضها من الخزانة لتسقط على الأرض رسالة تحمل معها رائحةً معروفة.

إنه عطر مطر الّذي لا يدخل لمكانٍ إلا ويسبقه.

فتحتها وخارجةُ انقباضٍ قد أصابت نظم قلبها.

"إلى الأمنية الّتي دعوتُ اللهَ أن يحقِّقَها لي:

أنتظركِ على ذات الدّرجات، أرجوكِ لا تتأخري، فإمّا أنتظرك هناك للعام المقبل أو أسأل الجميع عن مكانك فأجدك"

ضحكت من تحدّيه لها لقبول طلبه، وأرادت أن تثبت له عكس ما يظنّ.

فمشت نحو الحديقة مبتعدةً عن المكان الّذي ينتظر به.

لم تمرّ ساعةٌ وإذ برقمٍ غريبٍ يتّصل!

أجابت بعد تردّدٍ، ليأتيها الصّوت مستغيثاً:

"شغف تعالي حالاً أرجوكِ، أنا في مأزق، أريد مساعدتكِ، لاتخيبيني لن أؤخّرك"

وأغلق الخطَّ قبل أن تجيب حتّى.

لم يكن من الصّعب الحصول على رقمها،

فنجان قهوةٍ لرهف وتبوح بأغلى سرٍّ أُمِّنَت عليه.

اعتقدت أنّ الأمرَ طارئٌ ولم يطاوعها قلبها أن تردّه هذه المرة، فهرولت نحو الممرّ الذي دلفت منه لتصل للدّرج الّذي بجانب المدرّج.

كان يدير ظهره حتى كادت تخطئ أنّه هو،

وقفت قليلاً محاولةً إحداث ضجّةٍ تلفتُه،

كان عليه التأكّد قبل الالتفات، رنّ على هاتفها فسمع النّغمة بقربه، ليتوجّه نحوها بكلّ ما أوتي من جرأة..

ومحطّماً كل الحواجز والكلفة..

معطياً إيّاها علبةً قد فاقت حجم كفّيه، لكنّها لم تتّسع لمشاعره..

ملأ فيها كلّ مايستهوي شغف،

من كتب وروايات

مقرمشاتٍ وحلويات

ورد مجفّف يزيّن الأرضيّة الّتي تتوسطها علبة مخمليّة، وبطاقةٌ قد كتبت بخط عريض يقرؤه الأعمى من بعد مترين:

"كلّ عامٍ وأنتِ الحبُّ الّذي نبض به قلبي لأوّل مرة"❤️

تراجعت شغف خطوةً للوراء، وأغلقت عينيها محاولةً الإفاقةَ من المشهد الّذي خيّل إليها أنّه من إحدى المسلسلات،

لكن حين فتحت وجدت ذات المشهد!

وضع مطر العلبةَ على الأرض وقال بصوتٍ مرتفعٍ:

- أجل، أحبّكِ يا شغف!
فقد وجدتُ ضالّتي في عينيكِ..
كنت ضائعاً إلى أن وجدتك..
فصرت غريقاً في حبك!
هلاّ فتحتِ العلبة من فضلك؟

كانت قد توقعت منه شيئاً لها اليوم،

ربما قطعة حلوى أو قالباً من الكاتو

سلسال أو هدية رمزية لكن لم تتوقع أن تكون الهدية تلك!

مشت بخطًى كادت تتعثر بها لتفتح العلبة،

كان خاتماً يتوسطه حجرة من الألماس تعكس مستواه المادي وشعوره الحسي.

تلقّى الصّدمة من عينيها قائلاً بكل تأنٍّ:

- هلّا حبستِ قلبي بقلبك؟
هلّا أسرتِني في جوفك؟
هلّا قبلتِني لخطبتك؟!

قشعريرةٌ باردةٌ سرت في عروق شغف، واحمرارٌ قد سكن وجنتيها وتلبّدٌ قد أصاب عقلها وقدميها..

ماذا عليها أن تفعل؟!

لم تجد نفسها سوى تومئُ رأسها بالإيجاب مبتسمةً، لتنطلق بعدها تجري بعيداً عنه وعن المحبس الّذي تركته على جنبٍ مع كلّ الأحلام الّتي قد تحقّقت في ذاك الموقف الشهم.

-الفصل السابع-

(لمَ لا؟)

كان ذاك السّؤال المهيمن على عقل شغف منذ آخر محادثةٍ بينها وبين مطر.

كانت تعلم منذ البداية كأيّ أنثى لا يخفى عليها أن أحداً ما قد وقع في شباك حبّها، لكنّها كانت تبرّرُ اهتمامَه السّابق بتفسيراتٍ أخرى، ربما زمالة أو صداقة!

ربّما لأنّها لم تتربَّ على ذلك، لم تفتح عينيها على قصص الحبّ هذي.

ما موقف والدها إن علم بما تفعل؟

تمضي أوقاتها برفقة شابٍّ لا يعرفه!

كان كلامُ معلّمتِها يصدو بخفوتٍ في عقلِها:

"لا علاقة بين شابٍّ وفتاة قبل الزواج"

ثم أسكتَت ذاك الصوت بأّن مطر قصده الزواج ولا يبدو أنّه من النّوع الذي يريد التّسلية.

وها قد مضى عامُهما الخامسُ في الكلّيّة وهما معاً يعيشان أعذب ماقد يعيشه المرء..

كانت تجمعهما المحاضرةُ وماقبلها ومابعدها من أوقات فراغ، كانا يدرسان في الحديقة معاً، في المكتبة معاً، في كلّ طريقٍ في الجامعة معاً.

حتى حفظهما بائعُ الورد الّذي يتجول فيها ويذهب إليهما في كل مرة يلمحهم، فلا تكاد ترى مطر إلا وبرفقته شغف!

كان يريد مطر في رسالته الأخيرة أن يذهبا معاً في سيّارته لتناول الغداء في مطعمٍ يطلُّ على قلعة حلب، حيث المكان الوحيد الّذي يتوجّه إليه النّاس في العطل،

قال لها في آخر رسالة:

- لمَ تفطمين قلبي عنك؟
ألا تعلمين أنّك الهواء الّذي ينعشني وأنّ حياتي دون خضرةِ عينيكِ صحراءُ مقفرة!
هيّا أنتظركِ غداً عند باب السّكن في الرّابعة عصراً، هناك مطعمٌ لا يفوقه أيُّ مطعمٍ بتقديم المأكولات الشرقيّة وعليك أن تتذوّقيه معي، فلا طعم للحياة بدونكِ فما باللكِ بالطّعام؟!
لاتجعليني أطيل الانتظار..
أحبُّكِ.

هل هو سحر كلامه الّذي يجعلها توافق على كلّ ما يطلب؟

أم أنّها قد هامت به ولم تعد كالسّابق؟!

فهي كانت تحيط نفسها بإطارٍ يبرّرُ لها ما تفعل أنّها ما دامت في الجامعة فالناس ربما لن تراها أو تلومها إن كانت مع زميلٍ لها، لكن خارج ذاك الإطار كان عليها أن تسأل أحداً ما.

لم تكن لتسأل رهف، فربّما تموت اختناقاً وهي تأكل من عينها الّتي كانت تقدحها غيرةً وحسداً.

هدى!

حنينٌ دفعها للذّهاب إلى بابها بعد شهور من البعد عنها.

استقبلتها بحضنِ الغريب الّذي عاد لوطنه وهي تهمس لها:

ـ اشتقتُ لكِ جدّاً!

بعد ساعةٍ من سيلِ الذّكريات والبكاءِ وتجاذبِ أطراف الكلام، قالت شغف بصوت صُبِغَ بالتَّردُّد:

ـ أما علمتِ أن صديقتك خُطِبت!

اتّسعت حدقتا هدى وعلا صوتها هاتفةً:

ـ لا أصدّق!

مباركٌ يا عزيزتي مبارك، ومن الذي حاز على هذا الشرف؟

هل ابن عمّكِ الّذي كان ينتظركِ لإكمال دراستكِ؟

أم قريبُ أمّكِ الّذي خطبكِ مراراً ورفضه أهلُكِ لصغر سنّكِ؟

أرجعَ سيلُ الأسئلةِ تلك شغف سنواتٍ إلى الوراء حين كان يتهافتُ الخاطبون لها وكان أبوها يرفضهم ويقول:

"هي مازالت صغيرةً وستكمل دراستها"

برغم أنّ كلّ مَن تقدّم كان على أحسن ما تتمنّاه ديناً وخلقاً وحالاً، لكنّ إتمام تعليمها في تلك الفترة كان الأهمّ.

تبسّمت وقالت:

- لا ليس كما تظنين.

ثمّ راحت تحكي لها عن مطر وقصّته معها على مدى تلك الفترة..

كانت الابتسامةُ العريضةُ على وجه هدى تتضاءلُ رويداً رويداً ولا تنطق بشيءٍ، ثمّ قالت جملتَها الأولى بلهجةٍ حزينةٍ دسّت بها بعضَ الاستنكار:

- هل لأهلكِ علمٌ بهذا الأمر؟

- ليس بعد، لقد طلب منّي ألّا أخبرَهم حتّى نتخرّج، فأهله لن يسمحوا له بالخطبة حاليّاً لكيلا يتشتّت عن دراسته.

- وعرض الخطبةِ التّراجيدي الّذي قدّمهُ لكِ؟

- كان ليصارحَني بحبِّه ويثبتَ صدقَه.

- أيُّ صدقٍ هذا يا صديقتي وهو لا يستطيعُ أن يخبرَ أهله أو أهلكِ؟! هل ترضين بعلاقةٍ في الخفاء على أمل أن تبصرَ النّور يوماً ما؟! وإن لم تبصر؛ كيف سيكون حالُ قلبِكِ بعدَما تعلّق به لهذا الحدّ!

- لا قدّرَ الله، لمَ تقولين شيئاً كهذا؟!
هو عامٌ واحدٌ قد تبقّى لنا ونتخرّجُ ويخطبُني وتجري الأمورُ كما خطَّطنا لها.

أجابتها هدى وقد علت نبرتها:

- عام!
أتستقلّين هذه المدّة؟
وهل تعرفين ما يمكنُ أن يحدثَ في هذا العام؟
ولنفترض أنّه لم يغيّر عقله ولم يحدث شيء، لكن ماذا لو لم يقبل أهله بك؟
ألستِ من الرّيف وهو ابنُ أكبرِ تاجرٍ في المدينة؟!
ألم تسمعي عن عقليّات أهل حلب المتحجّرة في هذا الأمر؟!
ثمّ لنقل أنّهم قد قبلوا على مضض، هل تضمنين أن يقبلَ أهلُكِ به؟

ألم تعديهم أنَّكِ ستعودين إليهم؟!
غادرتِهم على أمل العودةِ وهما يقتطعان من فمهما في سبيل أن تكملي تعليمَك، وأنت الآن إن ستتزوّجين منه ستبقَين هنا أو ستسافرين لألمانيا، وكلا الخيارين لا أعتقد أنهما سيناسبان والدَكِ!
أم أنّكِ تظنّين أنّكِ حين عشتِ بمفردكِ قد صار القرارُ لكِ وحدك! ثمّ دعكِ من هذا كله، فقبل هذا..

غصّت الحروفُ في حنجرتِها وقد أصبحَ صوتها أحنّ، وعيناها قد لمعتا من أثر الدمعات المكتومة:

- شغف في علاقةٍ محرّمةٍ مع غريبٍ لستِّ سنين!
كيف سيباركُ اللهُ ويُيسِّر هذا الزّواج وقد بُنِيَ على حرام؟!

- أحسنتِ، حقاً أحسنتِ!
جعلتِني أعلم لِمَ أخفيتُ الأمر عنكِ كلّ هذا الوقت، كنتُ أعلمُ أنكِ لم تفهميني، كيف ستفهمينني أصلاً وأنتِ لم تعيشي ما أعيشُه!
في الوقت الّذي تقضينه أنتِ هنا مع عائلتك باستقرار؛ تلومينني على مجرّدِ تواصلٍ مع شخصٍ يبيع الدُّنيا ويشتري خاطري!
لقد وعدني أنّه سيقاتل الدّنيا لأجلي، هل تظنّيني غبيّةً للحدّ الّذي لا أفرّقُ به بين الصّواب والخطأ!

على كلٍّ، لن ألومَكِ، فأنتِ لم تجرّبي ذاك الشّعورَ الأسمى الّذي يجعلُكِ تتخلّين عن كلِّ شيءٍ فداءً له، لم تجرّبي معنى الحبّ!

كانت هدى قد وقفت من هول صدمتها بتلك الشّخصية الّتي لم تكن شغف الّتي عرفَتها منذ الطّفولة!

أجابَتْها بعفويّة:

- لقد فقدتِ عقلك!

- ربّما؛ ولكن حتّى لو فقدتُه فلَن أفقدَ مطر وحبَّهُ لي.

ثمّ همّت بالخروج، فقد اكتفت من هذا القدر من التّأنيب الّذي سيُضافُ لتأنيب ضميرِها.

أمسكَتْها هدى من يدِها قائلةً:

- على الأقلّ لا تُجاهري بالأمرِ أمام مرأى الناس.

أفلتَت يدَها وهي تقولُ غاضبةً:

- لا شأنَ لكِ بما أفعل، يبدو أنّني قد طرقتُ البابَ الخطأ، وداعاً.

ثمّ أغلقَتِ البابَ خلفَها لتتركَ هدى في هولٍ من أمرها، ولسانُها يدعو:

- اللهمّ شغف، اللهمّ شغف!

-الفصل الثامن-

"سامحني يا الله!
فمشاعري قد غادرَت زنزانتَها وأصبحت خارجَ ملكي، قد أسرفتُ في عاطفتي حدّ الغرقِ وما عُدتُ أعرفُ كيفَ أنجو..
لكنّي أعلمُ أنّكَ ربٌّ غفورٌ وحليم،
فاجعل لي يا إلهي مخرجاً واقرن قلبي بقلبِ مطر، وفّق ما تحبّه وترضاه ياربّ"

مسحَت شغف دموعاً اختلطَ بها خوفُ الجليلِ وضعفُ المتيَّمِ العاشق، ثمّ ما لبثَتْ أن أغلقَتْ على تلك السّطور دفّة الدّفتر، لتتركَ الحروفَ وحيدةً لا تُقرَأ.

لقد كان القلمُ صديقَها الأوّل، تستندُ على حبرِه فيفيضُ بما يختلجُ حسُّها وينزفُ على الورق..
فيكونُ الملاذَ الآمن لخواطرِها الّتي تخفّفُ عنها وطأةَ الألمِ والوحدة، تهرعُ إليه بعدَ كلّ نازلةٍ تُثقلُ كاهلَها، علَّها تبعثرُ الحِمْلَ بين النّقاط والجُمَل.
كان الهوى يحبسُها أسيرةً لقلب مطر، واللومُ يقرعها في السّجود لربّ البشر..
لم تكُن بتلك القوّة لتنهي العلاقة فقط لأنّه لا يستطيع الخطبة، كانت تعطيه فرصةً تلوَ أُخرى، وكأنّ الأمرَ أصبحَ تعلّقَ الغريقِ

بقشّة، لقد كان التناقضُ الذي تعيشه ينجلي على نفسيّتها، حتى كادت تُشخِّص نفسها بالفصام أو الاكتئاب!

غربَت شمسُ آخرِ يومٍ دراسيٍّ في الجامعة ساحبةً معها كلَّ الذّكرياتِ والقصص، كانا يجلسان على كرسيّهم المُعتادِ في حرَمِ الجامعةِ وبجوارِهم باقةُ نرجس وبضعُ محاضراتٍ وكتب..
كان الشّفقُ الأحمرُ يزيدُ المكانَ رونقاً، والصّمتُ هو السّائدُ، تتخلّله أصواتُ الطّيور الّتي حانَ موعدُ عودتِها للملجأ.

قرَّرَت شغف أن تكسرَ حاجزَ الصّمت وتدخلَه في دوّامة الأفكار برأسها، فأخذَتْ نفَساً عميقاً مستجمعةً قوّتها وقالت:

- هل تحبّني حقّاً يامطر؟

ابتسمَ مطر ابتسامته السّاخرةَ ونظر لعينيها اللتين تسرحان في السّماء:

- وهل يكون المطر لولا الشغف؟ منذ التقيتُك وهدوءٌ قد انتاب حياتي وجعلها تسكن، فهل تسألين حقاً سؤالاً كهذا!
ربّما تودّين التّأكّد والتّدلّل؛ فذاك من طبع النّساء المؤصّل، فهاتِ أذنيكِ واسمعي قلبي:
كلّ ذرّات الرّمل وحبّات الحصى
وكلّ قطرات البحر ونجوم السّماء
لا تكفي لكلّ مايكنّ قلبي لكِ من الهوى...

قاطعته بهدوء:
- ربّما محظوظةٌ أنا أن يحبّني شاعرٌ فيشعرَني بأنوثتي ويتغنّى، لكن أشعرُ الآن أنّ الكلامَ ماعاد يُجدي، أودّ أن أرى الأفعالَ يامطر. لِمَ لحدّ الآن لم تخبر أهلك بشأن خطبتِنا؟

تلعثم كعادته حين تفاتحُه بهذا الموضوع وبدأ يتحجّج بالامتحان الوطنيّ الذي شارف على الأبواب، وعن جداله العقيم مع والده عن ابنة عمّته الّتي يريدُ أن يخطبها له وهو يرفض، ثمّ أراد تغيير الحديث قائلاً:

- ما رأيكِ أن نذهبَ للسّوق؟

- وما الّذي يلزمكَ من السّوق؟ ما أعرفُه أنّ أباك متكفّلٌ بكلّ ما يلزمُك!

- ليس لي بل لكِ، أودّ أن أشتري لكِ لباساً يليقُ بالحفلةِ الّتي سأدعوكِ إليها.

توسّعت حدقتا شغف فأردف مكملاً:

- آه نسيتُ أن أخبركِ، زميلُنا في الدّفعة سيقيمُ عرسَه في آخرِ الأسبوعِ وهو مختلط، ولا أظنّ أنكِ ستذهبين معي بهذا اللباس..

كانت نظرتُه لها وهو يقول جملته الأخيرةَ أشدّ من السّيف على قلبها...

لم تكنِ المرّةَ الأولى الّتي يعلّق بها على لباسها الّذي مازال فضفاضاً طويلاً؛ لكن هذه المرّة لم يكن الأمرُ مجرّد اختلافِ مبادئ، شعرَت بأنّ كرامتَها تُهان، فنهضَت مسرعةً دون أن تعلّقَ بأيّ حرف..

مشَت دونَ وعيٍ وانتباهٍ فقد أحسّت بشعور غريب تجاهه، كرةٌ متضاربٌ نحوه لأوّل مرّة!
اغرورقت عيناها بالدّموع الّتي لاتعرف لِمَ تجمّعَت فيها، شعرَت بالدّنيا تلتفُّ مِن حولِها، أحسّت أنّها تحتاجُ الرّجوعَ لعائلتِها حالاً، تماسكت نفسها وقطعت الشّارع على عجلةٍ، لم تكُن تعلمُ أنّها تسابقُ القدَر، كان آخرَ ما رأتهُ ضوءُ السّيارة الّذي لمع فجأةً في عينيها ورماها لتسقطَ على حافّة الرّصيف.

-الفصل التاسع-

"لم يتّضح لنا أيّة أذية بنيوية، علاماتها الحيويّة بدأت تستقرّ، اطمئنّا صحتها جيّدةٌ وستصحو قريباً ان شاء الله"
أنهى الطبيبُ جملتَه وترك هدى ورهف في حيرةٍ وخوفٍ مُطبِقَين.
فهما تشعران بالمسؤولية تجاهها لأنّهما لم تخبرا عائلتَها بما حصل، فالطّريق مقطوعٌ ولن يستطيعوا المساعدة، وهما لم تعرفا بعدُ مدى صحّة شغف لتخبراهم، فكان الخيارُ أن تنتظرا استعادةَ وعيِها لتخبرهم هي بنفسها.
حضر مطر حالاً حين أعلمَتهُ رهف بما قاله الطّبيب، وانتظر الثّلاثةُ أمام السّرير ينتظرون رفّةَ عينٍ منها أو حركةَ إصبع..
سمعوا فجأةً صوتَها يدندن، كان منخفضاً وغير مفهومٍ، كأنّها كانت تنادي لأحدٍ، اقتربَ مطر منها مسرعاً ليسمعَ ما تقول، بدا الصوت أكثر وضوحاً، كان يُهيئ نفسه لسماع اسمه، لكنّها كانت تُتَمتم باسم والدتها ومن ثمّ تقول: يا الله لك الحمد ياالله لك الحمد.

همسَ في أذنها مطر علّها تفتح عينيها ففتحتهما رويداً رويداً، برغم ضآلة الضّوء إلا أنّه كان ساطعاً لمن لم يفتح عينيه لمدّة،

كان أوّلَ ما رأته وجهُ هدى القلِق الّذي تلألأ من كثرةِ الدّموعِ فابتسمت لها قائلةً:

- ويحكِ ياهدى مازلتِ تبكين ونحن لم نسافر بعد، ماذا ستفعلين حين نسافر وحدَنا لحلب؟ ثم لحظةً؛ أين أنا!

أدارت وجهها بسرعةٍ في المكان ونظرت للقثطرة المعلّقةِ على يدها فزاد توجُّسها، التفتَت يمنةً فرأت مطر قد فغر فاهُ ممّا سمع! فصرخت بهدى:
- لماذا أنا في المشفى؟ ماذا حصل؟ ومن هذا الغريبُ الّذي بجواري؟ لا أظنّه من الممرّضين أو الدّكاترة! أين أمي، أبي بخير؟

توقّفتِ الدّماءُ عن الجريانِ في جسدِ مطر، وذُهلَت رهفُ الّتي لم تنتبه شغف لوجودها، أمّا هدى فشيءٌ ما بداخلِها كانَ مطمئناً برغمِ كآبةِ الموقف، هرولَتْ نحوَها معانِقةً إيّاها وهي تقولُ متحاشِيَةً الإجابةَ أو ذِكرَ التّفاصيل:

- حمداً لله على سلامتك ياحبيبتي، لقد قلقتُ عليكِ كثيراً، الشُّكر لكَ يارب أنّكِ بخير..
أخبريني هل يؤلمُكِ شيءٌ ما؟

أعادَت كلامها غاضبةً تريدُ أن تعرفَ ما الّذي حصل، في ذاك الوقتِ دخلَتِ المُمرّضةُ ومعها الطّبيبُ وطلبا من الجميعِ أن

يخرجوا ليفحصاها ويقيّما حالتَها، فخرجوا تاركين شغف في دوّامةٍ من الحيرة..

همّت هدى بالاتّصال بعائلتها لتمهّد لهم عمّا حدث، في حين كانت رهف تحدّثُ نفسَها بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

- لا فارق لديّ إن نسيتني حقاً ونسيَت معها ستَّ سنين قضيناها معاً؛ لكن ما أخشاه هو أن تنسى الطّبّ الذي أفنَت شبابَها تدرسُه!!

أمّا مطر فقد أسندَ جسدَه للحائطِ وارتمى بعدَها على الأرضِ وهو يصرخُ بصوتٍ مخنوق:

- لقد نسيَت شغفُ حبَّها!

لقد نسيَتني ومُحيتُ من حياتها!

آه يا شغفي ليتني أنا من فقدتُ ذاكرتي.. ليتني ما عشتُ لأسمعكِ تنعتينني بالغريب!

يستحيلُ أن تبقى هكذا ستذكرُني عمّا قريبٍ أنا متأكّد!

آه ياشغف آه، لا تتركيني الآن، أنا بحاجتك.. 💔

سأل أخصائيّ الأمراض العصبية هدى وهو يعيد تفحص الإضبارة والصور:

- هل عانت شغف في حياتها من أي مرض نفسي؟

حملقَت هدى به كمن يستخفّ بالسّؤال ويستنكره وأجابته بعنفوانٍ:

- أبداً! لقد كانت في أتمّ صحتها العقليّة.

حاول الطبيب أن يوضح أكثر قائلاً:

- لا أقصد نعتها بالجنون كما تخيلتِ! ولكن هل لاحظت عليها بعض التغيرات السّلوكية أو المزاجيّة في الفترة الأخيرة، أو هل تعرضت لصدمةٍ أو لشيء ما قد يصعب عليها تحمّله؟

أجابت رهف عوضاً عنها هذه المرة:

- لا أحد سيعلم هذا الجواب فشغف طبعها السّكوت، ولكن بحكم معيشتنا معاً فأجل قد لاحظت بعض التّغيرات التي عزوتها لقلقها للامتحان المقبل أَو ربما لاشتياقها لعائلتها.

- لا أظن أن تلك الأشياء ستفسّر التشخيص، على أية حالٍ سأحيلكم لطبيب نفسيٍّ لنجد عنده الجواب، فكما أخبرتكم ليس هناك أي مشكلةٍ عضويّة لديها قد تؤدي لفقدانها الذاكرة بهذا

الشكل! وبإمكانها أن تغادر المشفى مساء اليوم، بالسّلامة إن شاء الله.

بعد عاصفة الأحداث تلك على قلوب الجميع، أعلن الطّبيب النّفسي نهايتها بالصاعقة، لم يجزم لهم السّبب ولكن قال لهم شارحاً:

- يبدو أن شغف تعاني من فقدان ذاكرة انفصامي في سياق اضطرابٍ ما بعد الصدمة، هناك شيء ما قد جعلها تتخذ وسيلة دفاعٍ كتلك! نحتاج لجلسات عديدة لتتوضّح الأمور أكثر، لقد عاينت حالاتٍ كتلك استعادوا ذاكرتهم بعد شهر ومنهم بعد ثلاثة وستة ومنهم لم يستعيدوها أبداً، لكن سنجرب إن شاء الله الطرق العلاجية جميعها وعليكم أن تعينوني في هذا الأمر.

كانت لا تزال الكلمة تصدو قي عقل مطر، فراح يفكر بصوتٍ عالٍ:

- صدمة! وأنا آخر من تكلمت معها! وأقضي معها معظم الوقت!

هل يُعقَل؟!

أنا السّبب!

-الفصل العاشر-

"إنّهُ لشعورٌ صعبٌ أن تخونَكَ ذاكرتُك!
أن تنظرَ للمرآةِ فترى خطوطاً في وجهك لم تكن مرسومةً في آخرِ مرّةٍ تذكرُها، أن تنظرَ حولكَ لتُصدم بما ترى، فعمرُكَ يسبقُ فكركَ، وأنتَ لستَ أنتَ، ومن تحبّ ليس بقربكَ بينما بقربكَ أناسٌ يدّعون أنّك تحبّهم وأنتَ لا تملكُ ذرّةَ مشاعرَ نحوَهم.. لا حول لكَ ولا قوّة بشيءٍ، ولا حولَ ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم"

كتبَتْ شغفُ تلكَ الأسطُرَ الّتي ليسَت إلّا دخاناً لنارٍ مشتعلةٍ في عقلها، كادت تمزّقُ القُصاصةَ الّتي كتبَتْ عليها، إلّا أنّ رهف أخذَتْها منها على حينِ غرّةٍ حينَ دخلَت إلى غرفتِها، فقد حاولَت رهفُ مراراً أن تشعلَ ذاكرتها دونَ جدوى حتى شعرَت باليأس..
إلّا أنّ هناكَ اليومَ شيءٌ أخيرٌ جعلَها تأتي وتقدّمُه إليها، دسّتِ القُصاصَةَ في دفترٍ يوحي مظهرُه بأنّ له شأناً لدى صاحبه.

لطالما اعتنَت شغفُ بالتّفاصيل، لذا كان حريّاً بدفترِ خواطرِها أن يكونَ على قدرٍ من التميّزِ والجمال.

اقتربَت رهفُ وابتسامةٌ باردةٌ تعلو وجنتَيها ولوّحَت بالدّفترِ أمامَها قائلةً:
ـ ألا يذكّرُكِ هذا بشيء؟

شيءٌ ما قد تحرّكَ في كيانِ شغف وهزّها مذكّراً إيّاها، فذاكرتُها أسعفَتها بتذكُّرِ القِشرِ دونَ اللُّبِّ هذه المرّة..
ابتسمَت متعجّبةً عن وصولِه إليها وقالت:
ـ أوَينسى أحدُنا هديَّةً من أمّه؟
لقد كانت أمّي داعمَتي الوحيدةَ لمحاولاتي المتواضعةِ في الكتابة، لذا أهدَتْني هذا الدّفترَ في عيدِ ميلاديَ الماضي، كدتُ أطيرُ فرحاً حينَها لأنّي وأخيراً سأبدأُ تدوينَ خواطري ومذكّراتي بدءاً من عامي الثّامن عشر.

كانت نظرةُ الشّفقةِ الّتي في عيني رهف كفيلةً بإسكاتِ الحماسِ في كلامِها، أدركَت شغف أنّها للآن لم تسأل عن تاريخِ اليوم، ولم يكلّمها أحدٌ عن حياتِها الّتي يقولون أنّها نسيَتها، فأردفَت قائلةً:

ـ ما تاريخُ اليوم؟

أجابَتْها رهف وهي تتحاشى النّظر لعينيها لصدمةِ ما ستسمع:
- إنّه الأوّل من تمّوز لسنةِ ألفين واثنين وعشرين.

لم تستوعب ماقالتهُ رهف بسهولةٍ فقالت متوجّسةً:
- هل يعني هذا أنّ عمريَ الآن أربعةٌ وعشرون عاماً؟

هزّت رهف رأسَها موحيةً بالإيجاب، فأكملَت شغف تساؤلاتِها:
- فإن كان آخرُ ما أذكرُه هو عيدُ ميلادي الثّامنِ عشر؛ فقد عشتُ ما يقاربُ ستَّ سنين لا أذكر منهم شيئاً! رحماك يا ربّ!

قالت جملتَها الأخيرةَ وسيلٌ من الدّموعِ قد روى وجنتَيها لتكملَ الحديثَ بصوتٍ مخنوق:

- قولي لي على الأقل أنّي تخرّجتُ ولدَيَّ شهادةٌ علّها تسليني رؤيتُها فتجعلُني أتذكّرُ ما درسْتُ!

وضعَت رهف في موقفٍ لا تُحسَدُ عليه أبداً، فكيف تخبرُها أنّها كانت على بُعدِ شعرةٍ من التّخرُّجِ؟!
أم كيف ستقولُ لها أنّها قد درسَتِ الطّبَّ ونسيَته؟!

أجابت باقتضابٍ متظاهرةً بالانهمام بالخروج:

- ليس بعد، لقد كنّا على وشكِ تقديمِ الامتحانِ المُوحَّدِ لنيلِ الشّهادة، لكن حدثَ ما حدثَ، ولا تدرين؛ ربما تتذكّرين كلَّ ما درسناهُ في سنين الطّبّ الستّ وتتفوّقين علينا! فقط أعطِ لنفسكِ بعض الوقتِ.. ألفُ سلامةٍ لكِ يا صديقتي.

غصّت شغف بِريقِها الّذي كان ينزلُ كالخنجرِ يطعن حنجرتَها وما تبقّى من ذاكرتِها الّتي أوصلَتْها فقط لموقفِ أبيها حينَ دعا لها بأن يجعلها اللهُ من وسائلِ رحمته، لقد كانت على بُعدِ شعرةٍ مِن استجابةِ ذاكَ الدُّعاء، لكنّ ذاكرتها لم يسعها الوصولُ لمعلوماتٍ أمضَت في دراستِها السنين، ولم يتّسع قلبُها أيضاً لكلّ ذاك الحزنِ، فأغمضَت عينيها وصارت تُتمتم:

- لا يُعقل كلّ هذا، ربّما أحلم!
يا ربِّ إن كان مناماً فأيقظني منه حالاً، فقد تعبتُ، أرجوكَ يا ربّ.

ثمّ فتحَت عينيها مجدّداً على أملِ أن يكونَ ذاك الأمرُ مجرّدَ كابوسٍ وأنّها سترى أمّها توقظُها لتصلّي الفجر، لكنّها لم ترَ سوى رهف تلوّحُ لها قائلةً: "هل أنتِ على ما يُرام؟"

كان عليها الآن أن تتقبّلَ المُصابَ وتحاولَ مساعدةَ نفسِها، أردفَت رهفُ وقد بدت عليها العجلة:

- سأدعكِ ترتاحين، ولكن عِديني أن تقرئي محتوى هذا الدّفتر، لقد عشنا معاً ستَّ سنين وربّما كانت سطورُ هذا الدّفترِ قد رأتكِ أكثرَ منّي، فعسى أن تفيدَكِ وتشعلَ في ذاكرتِكِ شيئاً ما، فمطر ينتظرُكِ على أحرَّ من الجمر.

ومن ثَمَّ تحرّكَت نحو بابِ الغرفةِ -وقد قالت جملتَها الأخيرةَ غصباً عنها لكثرةِ ما أوصاها مطر بها قبل أن تدخل-
أجابتها شغف ببرود:
- سأحاولُ إن شاء الله، شكراً لك.

وما إن أغلقت دفّة البابِ راحت شغف تقلّبُ الصّفحات، شعرَت حينها أنّ أمامَها مصباحَ علاءِ الدّين وأنّه سيحقّقُ لها أمنيتَها، أو أنّها أمامَ موسوعةِ قصصِ ألفِ ليلةٍ وليلة، كان الدّفترُ ليس مجرّدَ ورق؛ كان خلاصةَ العمر، تفوحُ منه رائحةُ العطر، وجفافُ الدّموعِ الّتي سُكِبَت مِن عينيها ما زالت تئنّ، سقطت منهُ ورودٌ مجفَّفةٌ، أمسكَتِ الورقةَ الّتي سقطَت، وقرأت ما كُتِبَ عليها باهتمام:

29/2/2020"
اليومَ اكتملَ نبضُ القلب
اليومَ وجدني ما كنتُ أبحثُ عنه"

تردَّدَت قليلاً بالبدء بعدما قرأت تلك العبارة، لكن عليها أن تعرفَ أيَّ شغفٍ تلك الّتي كانت!

-الفصل الحادي عشر-

"لا داعي لأن توصيني بشغف، فحتى لو لم تجمعنا أخوّة الدم فأخوّة الله أقوى وأمتن، سأبقى معها ولن أشعرها بالغربة، لكن أرجوكِ حاولي جهدك أن تجدي طريقاً يوصلك إليها، أو يوصلها إليكِ فليس كحضن الوالدة مأمن وملاذ.
أجل سأوصل لها قبلاتك وسلامك.
بأمان الله"..

أنهت هدى مكالمتها تاركةً والدة شغف تتخبط بين جدران العجز.

فالعجز أقسى مايقاسيه المرء، أن تكون مُكبَّل الأيدي مُصفَّد اللسان لا تُحرّك ساكناً لتساعد من يحتاج، أن تلوم نفسك مئة مرة على قرارٍ اتخذته ليس فيه رجعة، وأن تلعن الظروف التي أوصلتك لتلك الحالة ولا بصيص ضياءٍ يتسرّب ليدلّك على المخرج!

لملمت ماتبقَّى من عافيتها وتوضَّأت، فأخذت كلّ قطرة ماءٍ تواسيها وتمسح على قلبها، رفعت يديها هاربةً من كل الدّنيا، تاركةً كلّ الوسائل خلفها، مُتوجِّهةَ لقبلتها مُستَنجِدةً بالله أكبر.
كم تمنّت لو أنها استطاعت السجود إلّا أن طبيبها قد منعها بسبب ماحلّ على مفاصلها من تآكل، ليته علم أن تآكل الرّوح ببعدها عن الخالق أمرّ وأصعب من ألم المفاصل!
إلّا أنّها لاتملك سوى الرضوخ لأمره فلا تريد أن تسوء حالتها وليس هناك من يعيل ضعفها.

عجيبٌ أمر الأمهات يفنين أجسادهن في سبيل راحة الأولاد ثم لا يقفن في سبيل مستقبلهم، وفي الوقت الذي تحتاجهم وعليهم أن يردّوا ولو جزءاً يسيراً من المعروف لاترى حولها أحد..
فسبحان من جعل الجنة تحت أقدام الأمهات!

دعت بكل ما أوتيت من تضرعٍ ويقينٍ ورجاءٍ
ونادت بدعاء سيّدنا أيّوب ربّي أنّي مسني الضر وأنت أرحم الرّاحمين
ارحم ابنتي، ارحم عجزي، واجعل لنا مخرجًا يا مدبّر الأمور، ياميسّر كلّ أمرٍ عسيرٍ.
يا الله لطفك.

وعلى بعد بضع كيلومترات كانت السّكينة تتنزّل على قلب شغف من حيث لم تدري، فتحت عينيها لترى هدى بقربها تقرأ من مصحفها، استمعت لدندنتها التي تُذهِب عن القلب همّه، فقد أنهت قراءة سورة مريم وشرعت بالبسملة لتبدأ بسورة شغف المحبّبة لطالما كانت تسمعها مراراً وتكراراً، ترى المستراح بيت آياتها، والطمأنينة في معانيها

(بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
طه ۝ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى
[سورة طه 1 – 7]

حاولت حبس دموعها حتى هذه اللحظة فقد هربت منها شهقةٌ نبهت هدى لاستيقاظها، توقّفت على الفور ودنت منها متسائلة، هل أنت بخير؟

أخذت شغف نفساً عميقاً ومسحت الدّموع الّتي تسللت وأجابتها وهي تفرك عينيها:

- بخير يا صديقتي، يا صباحاً قد كان ينقصه وجودك، أكملي أرجوكِ القراءة كنت غارقة مع السّورة في الذكريات.
نهضت قليلاً مجمعة شعرها لجانبها الأيمن لتمسك يد هدى بحنوٍّ قائلة:

- كنت سأسألك هل وصلتُ لتلك السورة في تسميعي وحفظتُها؟ آخر ما أذكره أنّا كنا نتسابق في حفظ سورة التوبة!

كانت عيونها تلمع منتظرة الإجابة منها
راحت تتأمل أن توحي لها بالإيجاب وأنها قد حازت على الإجازة التي لطالما حلمت بها، حتى لو لم تتذكر سوى ثلث كلام الله لكنها ستكون راضيةً عن نفسها على الأقل.

تلعثمت هدى في الإجابة وبهتت تعاليم وجهها التي كانت منذ قليل تعج بالحياة، نطقت أخيراً قائلة:

- ربما كانت من حكمة الله ألا تتمي الحفظ فتنسيه الآن فتتألمي!

ثم أمسكت يدها الثانية مكملة:

- كنتِ قد مكثتِ هنا على ذات السرير حين تقدمنا لامتحان الثانوية معاً، نعم قد كنا نراجع الورد سويةً طيلة أشهر، ولكن كما أخبروكِ فأنتِ قد التحقت بكلية الطبّ وهكذا فقد فرقتنا مقاعد الدراسة كما جمعتنا أول مرة، بقينا على اتصال تضاءل قليلاً مع الزمن وانشغال كل منا بحياتها، وسبحان الله لم تتيسر لك فرصة للالتحاق في المسجد ومتابعة الحفظ كله خير الحمدلله.

لقد أخفت كثيراً من التفاصيل في آخر جملة، أخفت محاولاتها المتكررة معها لتعود من رواد المسجد دون جدوى.
لم تقل لها أن أخبارها انقطعت عنها لسنوات، ولم تحاول تذكيرها بقصتها مع مطر وبكلامها الجارح في آخر لقاء لها قبل الحادث!

ردت شغف بصوت مخنوق:

- الحمدلله على كل حال، لكني قد بدأت أستصغر نفسي أكثر، أيعقل أن تشغلني الدّنيا لهذا الحدّ الذي أغفل فيه عن القرآن! بمَ قد تفيدني دراسة مناهج الجامعة ولم أدرس منهج الحياة! واحسرتاه على شغف واحسرتاه، ثم أيضاً ذاك الذي يدّعي أني أحبه، هل يعقل أنّني كنت على تواصل مع شابٍ قبل الخطبة

وحتى بدون علم والدتي! ما يجعلني لست قادرة على نفي الموضوع هو شيءٌ واحدٌ فقط!

همّت بالنّهوض وإخراج الدّفتر من حقيبتها ملوّحةً به أمام هدى مستطردةً بالكلام:

- أعطتني من تدّعي أنّها صديقتي رهف هذا الدفتر البارحة قبل خروجي من المشفى، ومحالٌ أن يكون شخص غيري قد كتب عليه فهو من المقدّسات عندي ولا أسمح لأحدٍ بالاطلاع حتى عليه! أخبرتني بأنه قد كان ملازمي في أغلب الأوقات وأن عليّ أن اقرأه لعلّي أعرف نفسي وقصّتي مع مطر!

أتردّد كثيراً بفتحه، لكنّ الطبيب نصحني بقراءته، خائفةٌ من مواجهة نفسي هلّا شاركتِني هذه المهمة أرجوك؟

- من دواعي سروري.

أجابتها وهي تعانقها كمن يعانق طفله الضائع حين يجده.
شرعوا بالقراءة على مكث، تارةً يضحكون من تعابيرها البريئة ومواقفها المضحة وتارةً يبكون من الألم المخبأ بين السّطور وكثيراً ما يتعجّبون ممَ قد كُتِب.

كانت هذه الخاطرة أولاها:

" كنت أعيش بسلامٍ مطلق في حياةٍ لاتعرف معنى الوجع، ذاك الذي يأتي بعد اقتراف الذنب! كنت كالأطفال أقع وأنهض حتى ظهرت أنت!
وتكلمت مع غريب، بدون ضرورةٍ أو مبرر، ردودٌ لطيفة، تعليقاتٌ متكررة، أحاديثٌ دراسية كأي صديق في عالم وهمي، والمصيبة أني قبلت بيدي هذا الوضع
ولست أجرؤ على التفكير بما بعد
أشعر أحياناً أنّي لست بحمل هذا الذنب
فهل شريعتنا ترضى بذلك
فكيف أقبل الاستمرار به!
ثم يخالجني شعورٌ خافت يقول لي أنتِ
إنسان من الونس
وكنت أنت ونسي في كافة أوقات ضعفي، في ذروة تأجج مشاعري وانفتاحي للحياة.
كنت أنت هناك تقف بعيداً مرةً وتقترب تارةً، لا تتجاوز الحدود، ولكنّك لم تكفّ قط عن محاولة الحديث
فعلى مر الزّمان اعتدتك!
اعتدت رؤيتك من بعيد، حتى استطعت أن أميزك عن الجميع.

في أحلك ليال أعيشها، في خضم الامتحانات ومرّها تكون أنتَ ونيسي
في رسائلك الحانية ولفتاتك الدافئة
كان يريحني شعور أنّك هنا.
أزاح الله عن قلبي هذا الشعور !
رباه لاتجعلني ذنبًا له ولاتجعله ذنبًا لي
أتمنّى أن أغفو مستيقظةً على محيان كل الآثار وإغلاق النّوافذ وإسدال السّتار
أنا سبب كلّ هذا وينبغي أن يكون لدي الحل
اللهم ارزقنا تقاك
واجعلنا أقوى من أن نتّبع الهوى.😟 "

ابتسمت شغف حين أنهت قراءتها فسألتها هدى بتعجّب وترقّب:

- هل تذكرتِ شيئاً؟

أومأت شغف برأسها موحية بالنّفي فأكملت هدى الحديث قائلةً:

- أظنّك بدأتِ تزيحين أصابع الاتّهام واللّوم عن شغف القديمة بعد أن قرأتِ هذه الخاطرة.

- ليس تماماً لكنّني بدأت أفهم ما الذي يحدث في بداية كلّ قصة

- أجل يا شغف، فنحن لا نتعثر بالجبال بل بالحصاة الصغيرة.

- لكن كيف كان لي ألّا أتعثر بهذا!

- ألّا تخوضيه وحدك، فالمشاعر حين تبدأ تكون كقدحة نارٍ من الكبريت إن لم تكوني تعرفين أين ستوجهينها لدعتكِ أو ألقيتها لمكان خاطئ فاشتعل، ربما تظنيه في البداية نورٌ وأمانٌ ودفء لكنه حين يكبر إما ستضعين له حدوداً أو سيحرقك!
لست ألومك صدّقيني، لكن ربما إن أخبرتني بوقتها أو حتى تكلّمت عن مشاعرك مع والدتك لكان أحدنا قد وجَّه هذه الشّعلة أو أطفأها.

- أتفقّ معك جداً، لكن بدأت أتذكر طباعي فلست تلك الفتاة التي تستسهل الحديث عن مشاعرها مع أحد، فربما لهذا السّبب لم أتكلّم!

- يحصل دائماً فلطالما كنت أسهر اللّيل في الإعدادية أفكر هل فعلت لكِ شيئاً ياترى حتى بدوتِ في ذلك اليوم حزينة، آه منك يا كتومة!

تعالت ضحكاتهم لاسترجاع براءة وعذوبة تلك اللحظات وقاطعهم صوت النّداء للفطور

همّت هدى للخروج لإحضاره لغرفة شغف في حين أكملت الأخيرة قراءة خاطرة أخرى ريثما تعود.

"حرفٌ تلو حرف، جملةٌ تلو سطر، مقالٌ تلو قصيدة، حسنًا لقد أيقنت هذا،
لا شيء سيفي بالغرض!
أزحت من يدي كلّ الأقلام والأوراق فالعقل المشتعل لا يطفئ حريقه الماء قد اعتدت أن أطفئ أفكاري بالتّعبير عنها ولكن هذه المرة قد استعرت زيادة. أمضيت عمري خائفة من هذه اللحظة، لكن لا بدّ من المواجهة فالحياة عليها أن تصفعك من كل الجوانب لتنحت شخصيتك وترقى بفكرك لوعيٍ أكثر وإدراك، سمعت كثيرا عن لهفة الأمان وتعلق القلب برؤية أحد الأنام، وبمباغتةٍ بمحض الصدفة وصل إليَّ هذا الشعور! كابرته واستنزفت كلّ كبرياء النساء، وأقنعت نفسي أنّي مخطئة وأنه عرضٌ سيزول مع الزمان، ثم ماذا؟ لم أجد نفسي سوى أكبحه خوفاً مني عليّ، فالأوان لم يئن لمثل هذا الكلام، ولكنه كشمسٍ قاطنة في جوفي كلّما غربت جاء الصباح وأشرقت فيَّ من جديد!

تارةً أنسى وتارةً أبتعد وأخرى اقترب، ثم أنجرف!
تركت باباً يتسلل إليه الرّيح ولم أُوصد الإغلاق، راهنت على قلبي

أعاقلٌ هو من يراهن على الإحساس! خسرت الرّهان وخسرت نفسي وراحة بالي، وها أنا أقف حائرةً أجرّ أذيال الخيبة ورائي، لا استطعت أن أمحو الشّعور ولا أن أتناساه، لقد سُلب مني شعور الأمان ووُهب له وكلما جار الزمان عليّ وضعِفت وفقدت مخزوني من الاطمئنان، تراني أذكره وأحوم حول ما يوصلني إليه، ثم إذا صحوت من غفلة الشعور تيقّظت لخطأ ما أفعل واستعذت بالله من نفسي وهواي، ولكن على مايبدو أن الشّيطان لم يعد له دورٌ هنا وقد صرت كمن شغفها حبًا

ذاك الشّعور الذي يجتاح كياني في كل مرة أراه أو أكلمه، لم أكن أعرف الكثير عنه ولكنه قد عبر في محطة من حياتي، كنت بأمس الحاجة إليه.

فغدا شخصًا ليس كآخر وأصبح القدر المنتظر والحلم البعيد الذي وهبني شعورًا لم يسبق قط أن أحسسته. "

-الفصل الثاني عشر-

"يا من كنت عزيزاً على قلبي، السّلام عليك ورحمة الله وبركاته، وأما بعد:
فلا تلمني على الصّدود عن رؤيتك ولا على عدم الرد على اتصالك، فلست أنا شغف التي عرفتها وأحببتها.
شغف الآن هي كتلةٌ من الاضطراب والضياع، تقرأ ماكتبت لتعرف من كانت، هي في أقسى موقف قد يمر عليها، لذا لا تزيد عليّ خشونة الحياة وتفهَّمني!
أتمنى لك التوفيق في امتحانك المقبل، على أمل أن تصلك رسالتي فتكفّ عن ملاحقتي، وأن أنهي التعرف عليّ وعليك فأقرر مآل القصة لدي،
دمت بخير."

أنهى مطر قراءة الرسالة ولم ينتهي البركان عن الثوران بداخله، كيف له أن يجمع شتات نفسه وقد فقد جزءاً منه!
كلّ ماحوله يذكره، حتى حين يقرر الهروب للدراسة كان طيف شغف في كلّ سطر، يسمع نبرة صوتها في الصفحة التي قد درساها معاً في الممر قبل الدّخول للامتحان، ويرى ابتسامتها حين يصل للفقرة التي استعصت على كلٍّ منهما فاخترع لها

قصة لتحفظها، يتحسّس خط شغف حتى يكاد لا يخلو من كلّ هامش، فكيف السّبيل للنسيان!
والذكريات قنبلة موقودة، كلما اقترب الإنسان منها وعبث بها انفجرت وأطاحته أرضاً، برغم أنه لم يكن ليتجرأ للوقوف بوجه أهله ليدافع عن حبه إلا أنه قد خسرها فجأة وعنوة! خرج الموضوع عن مساره ولم يعد يناسب كبرياءه، كان يظن أنها ستنتظره حتى يؤسس نفسه فلا يبقى المال سليط أهله عليه فيثور عليهم ويخطبها، لكن القدر أدار عليه الكفة وحرمه منها!

بعد مرور عاصفة الأحزان التي حركتها الرّسالة، وصلته أخرى لكن المرسل آخر!
لقد كانت رهف؛ تُطيّب خاطره وتشحذ همته، تحاول أن تلملم ما تبقّى منه، وتذكره بأنّ عليه ألا يخيب ظنّ الجميع فيه، عليه أن يتخرج وأن يصبح الطبيب المنتظر، أهدأته تلك الحروف وفكرة وجود شخص يهتم بشعوره، تبادلا أطراف الحديث لبعض الوقت ثم اقترحت رهف أن تتابعه في الدراسة في الفترة القليلة المتبقية؛ علّها تشجعه وماكان منه سوى القبول فقد كان غريقاً وجد القشة.

وبالنسبة لرهف فقد كان مطر فريسة سهلة الاصطياد، خطة مدروسة لما هو آت، كل ماعليها أن تحتويه لتحوز عليه مع الأيام.

وبقدر البركان الذي اشتعل في جوف مطر بالرسالة الأولى، كان قد استعر أكثر في جوف شغف، فهي لا تستطيع حسم موقفها تجاهه بعد!

دخلت هدى عليها بعد الغداء لتكملا رحلة القراءة، استقبلتها شغف بابتسامة باهتة وأمسكت على الفور الدفتر وراحت تقرأ بصوت يخالطه التعب والسّأم:

" يحق له مالايحق لغيره
أتعجب أحياناً لمَ يسألني عن هوية كل متصل وعن طبيعة كل لقاء أذهبه، إلّا أنها تعجبني غيرته!
برغم أني قد تعصبت قليلاً اليوم من موقفه الغريب حين رأيته يطالع هاتفي دون علمي وعند سؤالي له أنكر أنه قد فتحه وأعلى صوته في وجهي، لكنني أعذره فقد جاءني اتصال من شاب هذا الصباح وكان قد أخطأ الرقم، على مايبدو أنّه كان يطمئن إن كان قد أزعجني مجدّداً، كم أنا محظوظة به! "

لم تستطع هدى حبس صوت ضحكتها فالتفتت شغف متساءلة عن سبب الضحك فأجابتها محاولة التكلم بجدّية:

- يقولون يا صديقتي بأن الحبّ أعمى، يعمي العيون عن مساوئ الحبيب يجعله في رتبة من التقديس، لم أكن أصدق ولكنني هنا في مثال حي لما يقولون، فأنت كما كنت أعرفك تكرهين أن يسألك والديك أي سؤال فيه نبرة استفسار، ولكنك هنا حين كانت نشوة الحبّ مسيطرة لديك بدلتِ مفهوم الشّك إلى غيرة، ثم أيّ غيرة هذه تجعله يفتش في هاتفك، الغيرة أن يحفظ حرمات الله ويتّقيه وغير هذا فهو شك ينجم عن شيءٍ دفين.

التقطت شغف أنفاسها وسألتها مترددة:
- هل تقصدين أني كنت على وشك الزواج من شخصٍ لايثق بي!
- لست متأكدة لكن هذا ماقرأته بين السّطور

تننهّدت شغف وقلبت الصفحة مكملة:
"أؤمن أن الأشخاص يتغيرون بقدر ما يؤمن بهم محبيهم، برغم أنه لم يلتزم للآن في صلاته إلا أنني أرى محاولاته وكيف يقوم حين أذكره، وهو لم يكف عن التدخين ولكنّه قد خففه حين علم أني أتأذى من رائحته، وأنا أيضاً أصبحت لا أرى مانع في التّغيب عن المحاضرات ما دمت سأدرسها معه، ولا مشكلة في

التجمعات والرحلات مع الأصدقاء ما دام كل منا يحفظ حدوده، لقد امتزجنا معاً وأصبح كلّ منّا قالبٌ يكمله الآخر."

أردفت شغف هذه المرة التّعليق بصوت ساخر:
- نضيف لقائمة الصفات إذاً أن علاقته مع الله غير متّزنة وأنّه لا ضوابط شرعية ولا أسس لديه والعلم عنده للتسلية!

- لم أقل شيئاً هذه المرة، أنت من بدأت تقرأين ببصيرةٍ مفتوحة، أصعب ما يقاسيه المرء ياصديقتي أن تزول بصيرته فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدّور.
ولست أجعل هنا من مطر شخصية سيئة فهو ربما أفضل مني وتتمناه ألف فتاة، لكن على الأقل شخصيته بعيدة عنك في المنطق!

- للأسف كلامك صحيح، حقّاً لا أعلم كيف رضيت بأن يكون شريكي يحمل صفات كهذه!
أشعر أنّي بالشرق وهو في الغرب

- القضية ليست اتجاهات وحسب، فكثيرٌ ممن لا يشبهون بعض يكملون بعض ويسعدون معاً لكن ما يحدث هنا أنّ دور العقل مغيّب، العاطفة من تسيّرك وهذا ما كان يؤلمني عليك، فلست

تعلمين كم من طلاقات تحدث بين أزواجٍ تزوجوا عن حب، فهم قد جعلوا القرار للعاطفة دون اللّجوء للعقل.

- لكن ألن تكفي العاطفة للتقبّل!

- للمرء قدرةٌ محدودةٌ على التّحمل ومن ثمّ فإنّ وهج الحبّ المقام على العاطفة وحدها سيخفت بأول موقف تصادم آراء أو أفكار، وهنا سأشير لك لشيء ربما الحكمة من تحريم أيّ علاقات قبل الزواج هو ذاك الأمر!

فالخالق قد أودع فطرة الانجذاب للجنس الآخر في كلّ منّا، والانجذاب يتبعه الإعجاب فالخطوات التي تودي بالقلب وتسيطر عليه، فيصير الهوى الحاكم ولا مجال لنقاش العقل هل المرء هذا سأستطيع إكمال حياتي معه بسعادة!

الله لا يريد منّا أن نندم بعد سنين حين تنطفئ جذوة الحبّ المبنيّة على المظاهر، يريد منّا أن نعقل بالاختيار، فحرَّم علينا من رحمته بنا كلّ ما يثير تلك الأمور، من اختلاطٍ زائدٍ وصحبةٍ وما إلى ذلك، فصدقيني ليس هناك شابٌ وفتاةٌ تحت إطار مايسمّى الصّداقة إلا وسيكون الشّيطان يتربّص لهم.

الله لايريد لنا أن نبني أحلاماً ربما تتحقق وربما تنهدم فننهدم معها، ولن أذكر لك كم من فتياتٍ عانين من صدمات نفسية إثر افتراقهم عمّن يحبون.

لقد كرّمنا الله وجعلنا مطلوبين لا طالبين، ولكننا نصرّ أن نرخص أنفسنا ونذوق علقم العلاقة التي نحسبها حبًّا!

ابتسمت شغف وأومأت برأسها موافقةً لما قالته ثمّ طلبت منها أن تدعها لتنام قليلاً فصداع قد ألمّ بها وتحتاج لبعض الراحة بعد ذلك النّقاش المطوّل.

تسلّل الفجر أخيراً بعد ليلةٍ حالكةٍ مرّت لم تنم بها شغف، وكانت قطرات الوضوء تتناثر من جسدها وما إن أنزلت قدمها حتى انزلقت ووقعت على الأرض.

فتحت عينيها بعد بضع ثوانٍ وشيءٌ ما قد تغير!
كانت الذكريات قد بدأت تطرق بابها، وبالأخص آخر موقف مع مطر!
عادت للغرفة وهي تحمل معها كيانين مختلفين، مشاعر شغف القديمة وذكرياتها وعقليّة شغف الجديدة وتفكيرها، وقفت أمام المرآة وسرحت في ملامحها، عليها أن تختار أي شغف ستكون؟

قالت بصوت مضطرب:
- حسناً يا شغف، سأوجه لك بعض الأسئلة وعليكِ أن تجيبي بلسان شغف قبل الحادث.
كيف كان حالك أولاً؟

سكتت هنيهةً مستجمعة قواها ثم أكملت:
- كنت بخير لكن ليس بأحسن وضع، كنت أترقب أمراً بكل حماس ولا تعاليم تشير له، كان الامتحان يقلقني والمسؤولية ترهقني، يبدو أنّني لم أكن بخير.

حسناً وهل حصلت على السّلام الذي تطمحين لعيشه في الدنيا وفي الحياة الحقيقية؟

شعور ما نخز في قلبها فأكملت بصوت يشوبه القلق.

- حصلت على شعورٍ حسبته يوازيه، فقد حزت شعور الحبِّ والاهتمام، شعور التقدير وأنّي أعني لشخصٍ ما كلّ الحياة، لكن مؤخراً بهت هذا الشعور وخواء روحي كان عليّ مواجهته، ربما قد بالغت في الشّعور على حساب الرّوح!

مسحت عبرات قد هربت من عينيها وأكملت المواجهة قائلةً:

- وأخيراً فهل ستكونين سعيدةً برفقة مطر؟

آه لقد انتظرت اللحظة التي سأكون بها معه كزوجةٍ طيلة ست سنين، لم أتخيل نفسي إلّا معه، لم أرَ السّعادة إلا بقربه فكيف برفقته!

تنهدت واقتربت من المرآة أكثر قائلةً:

- والآن لأجيب عن آخر سؤال بلسان شغف الحالية!

ربما كان ما قرأته في المذكرات حبراً يحكي الواقع مجرداً من العواطف، فعرفتُ فيه حقاً من كان مطر، وعرفتُ أنّي قد ظلمت مفهوم السّعادة حين حصرته به!

سأكون سعيدةً برفقته إن كنت مازلت شغف القديمة من عُمِيَ عن بصيرتها الحقيقة، لكن خططي وعقلي اليوم يخبراني أنّي سأظلم نفسي وأظلمه إن بقيت معه، فهناك خطوط عريضة في حياتي قد أصبحت أوضح ولن أتجاوزها فقط لأنّني أحبّه، وأحلامٌ لن أتخلّى عنها لأجله، ودورٌ عظيمٌ ينتظرني في هذه الأمة، فلست مجرد هائمةٍ بمطر بل أنا أولاً خليفة الله في أرضه وحريٌّ عليّ بعدما رزقني البصيرة أن أُرضِه!

-الفصل الثالث عشر والأخير-

"السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته
أعتذر عمّا سأقول مسبقاً، لكن يبدو أنّ ما كان بيننا سيبقى أسير السطور ولن يعود للحقيقة، شغف قبل الحادث كانت تحبك جداً، حباً جعلها لا تدرك أنّك لست تناسبها مستقبلاً، لقد قدّر الله لنا أن نفترق حين كنا على وشك اللّقيا وكل ما أعلمه أن هذا هو الخير طالما اختاره الله.
ولأنني الآن لا أملك بداخلي ذاك الحبّ المُتّقد فلست أرى أيّ رابطة تصلني بك، فلي عندك رجاءٌ أخير لأجلك، أن تمسح كل ما بيننا من ذكريات وأن تلتفت لحياتك وتبحث عمن تستحقك.
وألّا تنتظرني فلن أعود. "

كانت الدّال آخر ماكتبته في الرسالة كالحرف الذي سيلتصق باسمه بدءاً من اليوم والذي قد حُرِمته.

لم يكن لدى مطر ما يكفيه من الثبات لئلا يتأثر فحين يلازم المرء جماداً لست سنواتٍ يعز عليه أن يبتعد عنه فما بالنا بقلبٍ قد نبض بالحبّ وتعلَّق!

أغمض عينيه هرباً من الحقيقة ليمر أمامه شريط ذكرياته مع شغف، أشفقت عليه عيناه فذرفت دموعاً علَّها تخفف من وطأة حزنه.
لم تسعفه هذه المرة كلمات رهف ورسائلها، فهناك شعثٌ بداخله يحتاج لوقت طويل لأن يلتمّ شمله.

لم يكن اتّخاذ هذا القرار سهلاً على شغف!
فسيل الذكريات والمشاعر قد عاد يتدفّق بها، لكنّها الآن على اطّلاع بنصف الكأس الآخر، فهل تعود وتشربه بعد أن عرفت محتواه، أم تُفضِّل الظمأ؟
لم تخبر أحداً عن تحسّنها الذي لاحظته، فقط صَلَّت ركعتين و دعَت بدعاء الاستخارة، فما كان بعد ذلك إلا وصول رسالة من والدتها تُبشِّرها بحافلةٍ ستنطلق مساء الغد لتوصلها للقرية، لقد كان ذاك الخبر كالشّمس التي تشرق على فضاءٍ أنهكته العتمة، وأخيراً ستهرب من الأشواك التي أدمتها وترتمي في بستان أهلها وخصوصاً في حضن والدتها، أقنعت نفسها قائلةً بأنّ الامتحان الموحد قد فات موعده ومن يدري ربّما تعود في دورته القادمة!
همّت شغف لإخبار هدى بشأن رحيلها غداً، كانت هدى تراها لأول مرة منذ الحادث بهذه الحيوية، انضمّت لها لتساعدها بترتيب بقايا أغراضها قائلةً:

- لكنني سأفتقدك..

- لا عليك فالانترنت قد جعل من الكوكب قريةً صغيرة، ألم نحفظ هذه الجملة معاً في مقرر الوطنية؟

- أجل لقد أقنعتِني.

اقتربت شغف منها حين رأت ملامح الحزن قد اكتستها فمسحت على رأسها بحنو وهي تقول:

- لكلٍّ من اسمه نصيب، وقد قدر الله أن تكون هدايتي معك، لن أطيل في عبارات الشكر فلن تكفيني، غير أني أحمد الله أنك كنت بقربي،

حقاً لا أعلم أي طريق كدت سأسلكه لولا وقوفك بجانبي هذه الفترة، أتعلمين برغم أني قد خسرت كل شيء.

خسرت ذاكرتي ودراستي وأصدقائي ومستقبلي وشخص كان سيصير زوجي، إلا أنني ممتنة!

ممتنة لأني قد عرفت من أنا بوضوح أكثر لقد أدرتِ لي المرآة وصححتِ لي البوصلة، شغف طالبة الطب كان همها الأكبر أن تبقى بقرب الحبيب متجاوزة كل التفاصيل والمبادئ، كانت قد حجمت سعادتها وحياتها به، والدنيا فسيحة لا تختصر بعلاقة!

ولك من الخيال أن يكون ما حدث لي كان مقدراً لمطر وفقدته كما فقدني كنت سأجن أو سأصير كالعطشى في الصّحراء دون

مدد، لكن حكمته تعالى أن يجعل مرّ الفراق عند مطر ربما لأنه يبقى شاب وبرفقة أهله.
أتعلمين أيضاً ماذا تعلمت؟
لطالما ظننت أن المطر دوماً يكون رمز الخير والعطاء، إلا أنه حين يكون بغير وقته متجاوزاً لحده يدمر ما ينزل عليه، وقد أنقذني الله من ذاك الدمار المُحتَّم.
غمرتها هدى بدون وعي قائلة:
- لقد اقشعرَّ بدني يا فتاة من كلامك، لله در تأثير ما يخرج من فيهِك.

ابتسمت شغف ممازحة:
- إذاً تقترحين عليّ التحول للأدب،
حسناً سأكتب كتاب (من الطب إلى الأدب) برغم جنونيته إلا أنه خيار مقبول.

أمسكت هدى يديها ونظرت إليها نظرة فخر ووداع قائلة:
- أياً كان ما ستقررين البدء به فأنتِ لها كوني على ثقة، وسأكمل معك المثل الذي قلته بأن لكلٍّ من اسمه نصيب، ونصيبك يا فتاة أن يبقى الشّغف فيك متّقد!

ربتت شغف على كفيها مجيبة:

- محظوظةٌ أنا بك ياهدى.

كان ذاك الحديث مفترق الطرق وتلك القبضة التي أمسكتها في طريق المجيء ستفلت منها في طريق العودة.

أشرقت آخر شمس عليها في حلب فأرفقت صورة لها في حسابها معلقة.
(لقد غربت أيامي من سماء هذه المدينة سأعود لأشرق من جديد في الموطن).

ودّعت رهف برسالة نصية تخبرها بعودتها للديار وتمنياتها لها باختصاص يناسبها، فلم تكن لتحتمل سيلاً جديداً من الأحداث التي ستخبرها بها حين تلقاها.

ركبت الحافلة وبيدها مسبحة هذه المرة، أنهت كل ما تذكرته من أدعية وأوراد خلال الست ساعات الطوال،
ثم صرح السائق قائلاً:
خمس دقائق ونصل حمداً لله على السلامة.

أمامها خمس دقائق.
أمسكت دفترها وكتبت عليه..

"أن تضع نقطة في سطر حياتك ليس بالأمر الهيّن، أحياناً تكون الفاصلة أخف حدة، إلا أنني ها أنا أقلب الصفحة كلها وأبدأ من جديد مستعينةً بالله راجيةً منه ألا يحرمني الشّغف".

حمدت الله أنّها لم تنسَ عنوان المنزل، فقد كانت كل الطريق تسترجع الذكريات في القرية.
وصلت أخيراً..
حملت حقيبتها مستجمعةً قوتها فقد كانت تحمل على ظهرها أعباءً أثقل من متاع السفر، طرقت الباب بنغمها الذي كان لايطرقه غيرها، تسلل صوت زلاغيط أمها لسمعها بمجرد إبعاد يدها عن الباب، ماهي إلا ثوانٍ وارتمت تعانقها في سيل من النحيب والدموع، قبلت يديها اللتين قد تشققتا كثيراً عن آخر مرة لمستهم ثم ظهر والدها من بعيدٍ فهرولت نحوه وعانقته وصوت بكائها يختلط مع الكلام:
- لم أحقق حلمك يا أبتِ لقد خيّبت أملك ما عدت إليك وأنا طبيبة، ها أنا أرجع إليك وأنا كسيرة الفؤاد، أنت الطّبيب يا أبي وأنا من أحتاجك.

أجابها بصوته الثابت الذي اعتادت عليه:

- بسيطة يا ابنتي بسيطة، كل ما يهم أني قد رأيتك بصحةٍ جيدة وكل ما دونه يهون، ليس الذنب ذنبك وسأبقى فخوراً بك بشهادة طبٍّ أَو بدونها، أنت شغفي المدللة.

خمدت نيران الشوق في قلوب العائلة، واكتمل أخيراً عددهم في المنزل، كانت سعادة اللقاء قد طغت على المُصاب.
وعلى طاولة الغداء قامت شغف من كرسيها وأمسكت المعلقة كوضعية مكبر الصوت مقربة إياه من فمها مما جعل الجميع يضحك ويتساءل عما ستقوله.

- سيداتي وسادتي أعلم أنّكم قد اشتقتم إلي إلا أنني أريد أن أكون صريحة معكم، لن يناسبني الجلوس في المنزل طويلاً فهل من اقتراح لأبدأ به حياتي الجديدة؟
قالت أختها الصغرى بحماس: بإمكانك المجيء معي للمسجد.
وأردف أخاها: هناك معاهد قد بدأت بإعطاء دروس في اللغة الإنكليزية.
أما أمها فقد اقترحت عليها تعلم الطبخ معها ومتابعة ماتريد من دورات أونلاين على الانترنت
واختتم الاقتراحات والدها قائلاً:

- الجامعة الافتراضية، أفضل وسيلة للتعلم هنا، وبإمكانك اختيار الفرع الذي تريدينه.

تبادر في تلك اللحظة قول هدى لها عن تحولها للأدب.
فسألته باهتمام:

- هل للأدب العربي حيز في هذه الجامعة؟

تغيرت معالم وجه والدها فقد كان ينتظر منها السؤال عن الصيدلة أو إحدى كليات الهندسة فأجابها بامتعاض:
- لست متأكد ربما يوجد
- لا عليك الموضوع لديّ، فقط أعطوني كلمة سرّ الانترنت وسأبحث عن كل شيء وأرتب الأمر.

أعطت شغف الفرصةَ لنفسها لمعاودة دراسة الطب، تصفّحت بعض المحاضرات كانت لا تذكر إلّا الشيء اليسير، فصار عليها الاختيار الآن بين الطبّ الذي دخلته تحقيقاً لحلم والدها، والأدب الذي لطالما شُغِفت به،
وفاز الشغف!

النهاية

دونت شغف على دفترها هذه المرة مذكراتها في بداية اليوم ٢٠٢٤/٢/٢٩
وأخيراً إنه عيد ميلادي

لقد انتظرت هذا اليوم ليكون مميزاً بكل تفاصيله، فبه سأتوّج إصدار كتابي الأول بفضل الله، ومن ثم سألتقي بمن كان مثال العدل والتوازن الذي لطالما بحثت عنه، سأذهب مع عمر للمحكمة لعقد قرانا، نبقى الإناث ضلع قاصر بحاجة من نسكن إليه، وما زاد فرحتي اليوم هو منشور رهف الذي قرأته صباحاً وقد كتبت به أنّها قد خُطِبَت من مطر، أيّ عدلٍ إلهيٍّ هذا وجبرٍ لكلينا يا رب، ينقصني فقط حضور هدى الحفلة، أرجو أن يتيسّر لها طريقٌ لمشاركتي الفرحة، ينتظرني يومٌ مليءٌ بالحماس فاللهم تيسيرك "

الخاتمة

لطالما انتظرنا المطر وحسبنا أنه يرمز للخير والعطاء دائماً، إلا أنه حين يهطل بغير وقته متجاوزاً لحده يدمر ما ينزل عليه. قد ينقذنا الله من ذاك الدمار المُحتَّم حين يدلنا ويأوينا بأحكامه في بيت له سقف نوافذه محكمة الإغلاق وبابه مغلق لكيلا يصل إلينا منه الأذى، وهنا يحتدم الصراع بين الظن بأنا محبوسون واليقين والانقياد لما شرع الله لحمايتنا فأي الفريقين يفز يلقَ النتيجة!

قصة شغف هي قصة تقبع في داخل كل فتاة في زاوية من زوايا حياتها، فمنهم من بقيت دون بصيرة وحاربت كل شيء لترضي هواها، ومنهم من هداها الله لفهم الحكمة وأسر القصة في جوفها وابتعادها عما يعكر صفو قلبها، مستغيثة بالله أن يتولاها ويرزقها غيث قلبها وفق ما يرضى وحين ما يقدر، فكان العوض من الله مُبهِر.

فها هي بطلتنا قد شغفها مطر وحين دعت أغاثها بعمر!

فاللهم يا جبار الخواطر وعلاّم السرائر، لا تحجبنا عن رؤية نور الطريق كما ترضى ولا أن نتبع ما نهوى، يا الله ألهم نفوسنا تقواها وارزق قلوبنا بغياثها، فيقيننا بمخرجك يسكب علينا السكينة بعوضك.

الفقيرة لربها رزان جلب

ولا يسعني أن أختم هذي القصة بدون التوجه للجندي المجهول، الداعمة الأولى، من تشاركنا معاً تفاصيل القصة كأنها واقع، من أهدتني أفكاراً لم تكن بدونها القصة هكذا، فكانت لمستها طاغية كحنان قلبها.

شريكتي بكل خطوة شهد جلب

7/11/2022

تمت بعونه تعالى

شغف قد

لطالما شُغِفنا بالمطر وحسبناه رمز الخير والعطاء، إلا أنّه حين يهطل بغير وقته متجاوزاً لحدّه يكون مصير الأرض الهلاك!
قصّة شغف هي قصّةٌ تقبع في داخل كلّ فتاة وتتجلّى في زاويةٍ من زوايا حياتها، فمنهم من شُغِفت بالمطر ومنهم من انتظرت الغياث.

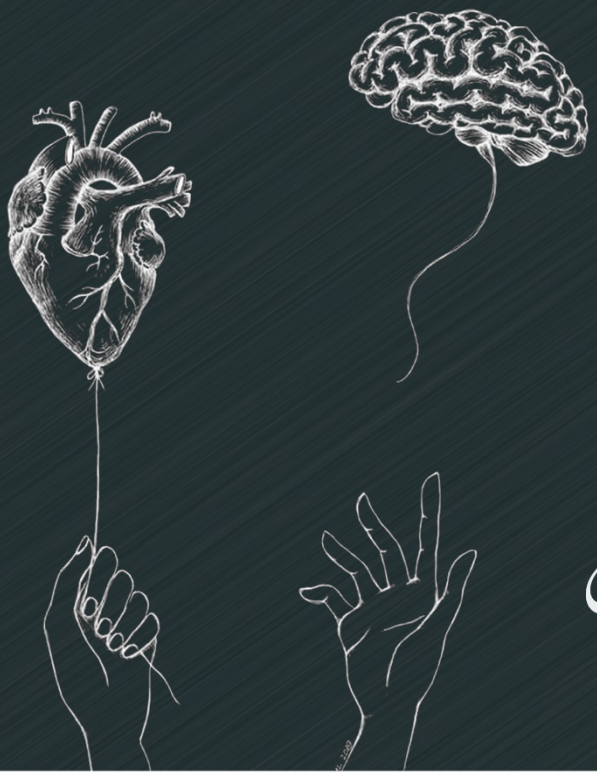

تصميم
أحمد عصام يحيى